الجزء الثاني

عالم الفكر

Produced with ScanToPDF

www.scantopdf.eu

www.scantopdf.eu

الفصل الأول

النماذج الإدراكية والتحليلية

من الموضوعية المتلقية إلى الموضوعية الاجتهادية

لم تكن عملية الانتقال من المادية إلى الإنسانية والإيمان مسألة هينة أو يسيرة، ولم يصدق كثير من أصدقائي ما حدث في بادئ الأمر، وقاطعني بعضهم، وضمرت علاقتي بالبعض الآخر. ولأن كتاباتي عقلانية (برغم أن مرجعيتها النهائية إيمانية: الإيمان بالله والإنسان باعتباره كائنًا غير مادي يكتسب تركيبته من كونه كائنًا ربانيًا لا طبيعيًا)، فقد ظل البعض يَعُدُّني ماديًا لأنهم ربطوا العقلانية بالمادية، وهي عملية ربط لا أساس لها في الواقع. فروبسبيير كان ماديًا خالصًا، أعلن عبادة العقل، ولكنه في الوقت ذاته فرض حكم الإرهاب على الشعب الفرنسي فترة من الزمن، لم تنته إلا بإرساله هو نفسه إلى المقصلة (تماماً مثل دانتون من قبله، الذي أصيب بالاشمئزاز من هذه العقلانية المادية الإرهابية، فقال وهو أمام المقصلة: «إني أفضل أن تقطع المقصلة رأسي على أن أقطع رءوس الآخرين. أنا أشعر بالغثيان من الجنس البشري»). وكان هتلر ماديًا، مغاليًا في ماديته، وكان في الوقت ذاته لاعقلانيًا مغاليًا في لاعقلانيته، وكذا كان ستالين. وهل يمكن الادعاء بأن الإمبريالية الغربية، هذه الحركة المعادية للإنسان وللعقل، والتي أحرقت الأخضر واليابس، وأبادت الملايين، استنادًا إلى ادعاء تفوق الإنسان الأبيض، هل يمكن الادعاء بأن هذه الحركة المادية عقلانية؟

وقد صاحب تغير الرؤية الدينية والفكريه تغير في فلسفة المنهج وأدواته. فمن المستحيل أن يتم الواحد دون الآخر. وحينما نفضت المادية عن فكري أصبح من الصعب عليّ تقبل

www.scantopdf.eu

التصور القائل أن العقل الإنساني صفحة بيضاء تسجل الواقع في سلبية وبشكل مباشر، وكأن الإنسان مجرد شيء مادي بين الأشياء. وظهرت في حياتي ثلاثة موضوعات أساسية مترابطة متزامنة حتى أكاد أن أقول إنها ثلاثة أوجه لعملة واحدة (إن صح التعبير) تعبِّر عن تحولي من النموذج المادي إلى النموذج الذي يفصل بين الإنسان والطبيعة/ المادة. هذه الموضوعات هي: الانتقال من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية والتوثيقية والمادية والمنفصلة عن القيمة (بالإنجليزية فاليو فري VaLue- free) إلى الموضوعية الاجتهادية، ورفض العقل السلبي وتبني رؤية توليدية للعقل، وأخيرًا رفض الرصد المباشر وتبني النموذج منهجًا في التحليل. وبرغم ترابط العناصر الثلاثة فإنني - كتكتيك منهجي - سأتناولها واحدًا تلو الآخر. ولأبدأ بالموضوع الأول، أي الانتقال من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية) والمعلوماتية إلى الموضوعية الاجتهادية.

والموضوعية الفوتوغرافية هي نموذج تحليلي يذهب إلى أن المعرفة عملية تراكمية تتكون من التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادي) كما هو تقريبًا، بصورة فوتوغرافية (أو شبه فوتوغرافية) وإدراجها في البحث أو الدراسة (دون ربط بين المعلومات ودون محاولة تجريد أنماط منها). وقد عُرِّف الموضوعي بأنه «ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين». والموضوعية تستند إلى أن ثمة علاقات قائمة بين أجزاء الأشياء المدركة، وأن الناس جميعًا بوسعهم أن يدركوا هذه العلاقات بنفس الطريقة لو تهيأ لهم الموقف الصحيح لإدراكها. ولا يهمني أي التعاريف يتبناها المرء، وإنما المهم هو النموذج الإدراكي الكامن وراءه. وفي حالة الموضوعية نجد أن النموذج الإدراكي يساوي بين العقول كلها، ولذا إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحدًا، أي «إدراكًا موضوعيًا». ومثل هذا التعريف يلغي فعالية العقل وإبداعه وحدوده، ويلغي الذاكرة التاريخية وأعباء المدرك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وآلامه وأحلامه والتي تؤثر في عملية الإدراك. فالعقل - حسب هذا النموذج - شيء سلبي بسيط مثل الكاميرا يحاول أن يحيط بالواقع كله وأن ينقل تفاصيل الواقع كلها وبحذافيرها، وكأنه غير قادر على الحذف والاختيار والتضخيم والتهميش والتحريف والتشويه، مرجعيته النهائية هي الواقع المادي كما هو. وهذا التصور للعقل والواقع يهمل علاقة الجزء بالكل والواقعة بالنمط والظاهر بالباطن، فالكل والنمط والباطن لا توجد في الواقع وإنما هي أطر يجردها العقل الفعال. (وكما أخبرني أحد كبار الأساتذة من المتخصصين في المنهج، في حفل عشاء، بعد أن وضع كفه على رأسه: «إن

www.scantopdf.eu

المعرفة هي محاولة نقل الواقع نقلاً فوتوغرافيًا، وكلما كانت الصورة أدق كانت أكثر موضوعية. فهي تعكس الواقع بدقة». وبينما كان يتحدث وجدت رأسه يتحول فجأة أمامي إلى مربع في وسطه عدسة تتحرك في جميع الاتجاهات. فضحكت. وحينما سألني لمَ تضحك؟ قلت له: «تذكرت أنني لا أمتلك آلة فوتوغرافية، مما يؤثر على موضوعيتي». فنظر إليَّ في دهشة ولم تسجل آلته الفوتوغرافية معنى كلامي!).

والمعلوماتية، أي تصور أن المعرفة هي حشو المعلومات ومراكمتها، مرتبطة تمام الارتباط بهذه الرؤية، الموضوعيه الفوتوغرافيه. تذهب المعلوماتية إلى أن المعلومة مهمة في حد ذاتها، لا بسبب علاقتها بالموضوع الكلي أو بنمط متكرر. ولذا يصبح التأليف هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها. والافتراض الكامن أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الاقتراب من الواقع (كما هو)، إلى أن يحشد الباحث كل المعلومات أو المراجع (أو معظمها)، ويعطينا صورة طبق الأصل من الواقع. وهو تصور يتضمن صورة للعقل بحُسبانه كيانًا سلبيًا.

إن هذا الموقف الموضوعي المتلقي المعلوماتي ليس «موضوعيًا» وإنما هو «موضوعاتي»، بمعنى أن الدارس يكتفي برصد التفاصيل والموضوعات وتسجيلها دون أن يربط بينها ودون أن يبين ما هو المركزي منها وما هو الهامشي، وما هو المعبِّر عن النمط الكلي وما هو مجرد واقعة غير ممثلة، وما يستحق الإبقاء منها وما يستحق الاستبعاد. ولذا أيضًا أتحدث عن الفرق بين «الفكر» و«الأفكار». فالفكر هو أن يقوم المرء بالربط بين الأفكار المختلفة ثم يقوم بإعادة تركيبها داخل منظومة محددة تتسم بقدر من التجريد والاتساق الداخلي. أما الأفكار، فهي أن يرصد الإنسان الفكرة تلو الأخرى ويسجلها دون أن يحاول أن يرى الوحدة الكلية الكامنة وراء التعدد. كما أتحدث عن الفرق بين «الواقعية» و«الوقائعية»، فالواقعية هي أن تصل إلى جوهر الواقع (الماضي والحاضر والمستقبل)، وانطلاقًا من هذا يمكن الربط بين الوقائع المختلفة وترتيبها وتجريد معنى عام منها يتجاوز كل معلومة على حدة. أما الوقائعية، فهي مرتبطة بالحاضر وحسب، وهي عملية رصد مباشرة للأمر القائم، تهمل ما هو كامن. ولذا نجد أن الوقائعية، في عالمنا العربي، التي تقدم نفسها بحُسبانها واقعية تؤدي إلى نفي التاريخ وإلى الهم والغم والهزيمة. ودعاة التطبيع والعولمة يدَّعون دائمًا أنهم من «الواقعيين»، وهم في حقيقة الأمر وقائعيون، أما الواقعيون الحقيقيون، فهم المجاهدون في جنوبي لبنان والمنتفضون في فلسطين والثوار في العراق

www.scantopdf.eu

الذين تجاوزوا الظاهر ووصلوا إلى الباطن (الإمكانية الكامنة) وتحركوا في إطارها، ووقعت الواقعة إذ أوقعوا الهزيمة بالعدو وأصبح النصر أمراً واقعاً !

ولعل التمييز بين الموضوعية والموضوعاتية، والواقعية والوقائعية، والفكر والأفكار، يعود إلى هذا التمييز، الذي أدعو له دائماً، بين الحقائق والحقيقة. فالحقائق هي معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أما الحقيقة فهي نتاج جهد إنساني عقلي، حين يقوم العقل بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها. وعمليتا الربط والتجريد تقفان على طرف النقيض من عمليتي الحشد والتراكم. (وبطبيعة الحال، إذا كان ثمة فارق بين الحقيقة والحقائق، فهناك فارق بينهما من جهة والحق من جهة أخرى، فالحق يسبق عمليات الفهم والإدراك والتحليل والتجريد والفك والتركيب).

ومن أطرف النكت عن الموضوعية المتلقية، التي تلغي العقل تماماً، تلك النكتة التي أخبرني بها د. أسامة الباز حينما كنا ندرس معاً في الولايات المتحدة: سار شحاذ في المدينة يعلن أنه سيتزوج ابنة السلطان، فلم يعره أحد أي التفات، ولكنه حينما تمادى في ادعائه عدة أيام أمسكه أحدهم من قفاه، وقال: «لمَ تروج هذه الأكاذيب، أيها الشحاذ؟». فقال: «في واقع الأمر، المسألة شبه منتهية، فأنا موافق على هذا الزواج، كما وافق كل من أبي وأمي عليه، ولم يبق سوى موافقة ابنة السلطان وأبيها وأمها». كنت أسأل طالباتي، لم نضحك لهذه القصة مع أن الشحاذ صادق فيما يقول ؟! ومن خلال الحوار نصل إلى أن الشحاذ بالفعل، من ناحية موضوعية متلقية، لم يكذب، فهو وأبواه يمثلون ٥٠٪ من العناصر الموضوعية المكونة للظاهرة، ولكن الأمر يختلف تماماً إن أخذنا في الحُسبان مدى القيمة وفاعلية كل عنصر (وهو أمر يحتاج لإعمال العقل والخيال)، إذ إننا حينئذ سنستنتج أن قرار الشحاذ وأبويه بالزواج من ابنة السلطان لا قيمة له.

وفي الندوة الشهرية التي أعقدها في منزلي، ضرب تلميذي وصديقي ياسر علوي مثلاً آخر. إذ قال: إن مخبرين دخلا غرفة حدثت فيها جريمة، فألقيا نظرة عليها. وبعد قليل دوّن أحدهما المعلومات التالية: جثة القتيل - مسدس استخدم لتوه - محفظة فارغة - زر أخضر. فقام المخبر الأول بحصر هذه المعلومات، واستخلص منها أن هناك جريمة قتل استخدم فيها مسدس بهدف السرقة، وأن القاتل كان يرتدي قميصاً أخضر. أما المخبر الثاني، فقد استمر في عملية الرصد الموضوعي، وأخذ يدوّن: كرسيان - قطر المائدة - لوحة - لون السقف - لون السيراميك - ارتفاع الحائط ... إلخ. والحقائق التي أوردها

www.scantopdf.eu

المخبر الثاني هي حقائق صلبة لا مراء في هذا (لا تقل في صلابتها عن المعلومات الدالة التي دونها المخبر الأول)، ولكنه لم يستخدم عقله في عملية الربط والتجريد التي تؤدي إلى اختيار بعض العناصر واستبعاد البعض الآخر، ومن ثم تاه في خضم المعلومات الدقيقة الكثيرة غير المترابطة التي ليس لها أي قيمة تفسيرية ! والأمثولة تبين أن تزايد المعلومات لا يؤدي بالضرورة إلى زيادة المعرفة والحكمة !

وكنت أذكر للطالبات كذلك قصة من قصص جحا الفكاهية التي تلقي الضوء على الموضوعية المتلقية. ذهب جحا إلى إحدى القرى، وادعى أنه متفقه في الدين، فأكرم القرويون وفادته. فقعد في المسجد يتعبد ويلتهم ما يأتيه من طعام. وبعد بضعة أيام أراد أهل القرية أن يستفيدوا من علمه الوافر. وبعد إلحاحهم، قام جحا في وسط المسجد ليعظهم وتساءل: «هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟» قالوا: «لا». فظهرت علامات الغضب على وجهه، وقال: «كيف تتوقعون ممن هو في علمي أن يتحدث مع من هم في جهلكم؟». وقعد ليعاود العبادة والتهام الطعام. حزن أهل القرية، وقرروا أن يغيروا من إجابتهم. وذهبوا إلى جحا مرة أخرى طالبين منه العلم والموعظة. وبعد إلحاحهم قام مرة أخرى وتساءل: «هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟» قالوا: «نعم». فارتسمت على وجهه ملامح السرور والغبطة، وقال: «الحمد لله، الحمد لله، أنتم أهل علم وتقوى، فلتهنئوا بعلمكم وتقواكم، ومعرفتكم بحديث الجنة وأهلها !». وقعد ليعاود العبادة والتهام الطعام. حار القرويون في أمره، وقرروا أن يتبعوا خطة جديدة وذهبوا إليه وألحوا عليه أن يعظهم. فقام جحا، وقال: «هل أتاكم حديث الجنة وأهلها ؟» فقال نصف أهل القرية: «نعم». أما النصف الثاني فقال: «لا». فما كان من جحا إلا أن قال: «هؤلاء الذين يعرفون يخبرون الذين لا يعرفون». وجلس وعاد إلى ما كان عليه.

كانت الطالبات يضحكن من القصة، ولكنهن كن يخفقن عادةً في تفسير سبب الضحك. ولكن بعد قليل كنا نتفق على أن جحا ساوى بين المعرفة (المركبة، نتاج الربط والتجريد) والمعلومة (البسيطة المباشرة المعزولة من أي سياق). فحديث الجنة، بالنسبة له، مجرد معلومة، إما أن تعرفها وإما ألاّ تعرفها، وكانت أسئلته تشبه الأسئلة في امتحان موضوعي الإجابة عليه إما بنعم وإما بلا، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. وقد ابتلع القرويون المساكين طُعم الموضوعية المتلقية، فجلسوا في المسجد بعد هزيمتهم مذمومين محسورين.

www.scantopdf.eu

وقد أشرت من قبل إلى الذنب الهيجلي المعلوماتي (أعلى درجات التجريد وأدنى مستويات التخصيص). ويمكن القول بأن الموضوعية الفوتوغرافية هي نتيجة انفصال الهيجلية والرغبة في الوصول إلى رؤية شاملة تنضوي تحتها كل التفاصيل عن النزعة المعلوماتية، فتبقى المعلوماتية بمفردها، ويصبح هم الباحث، الذي يدور في إطار أدنى مستويات التخصيص، أن ينقل الواقع كما هو، وأن ينقل التفاصيل والمعلومات المتناثرة كما هي دون ربط أو تجريد. وهذه الإمبريقية السطحية لا تُفرِّق بين مادة البحث (التجميعية الأرشيفية) وعملية البحث (التحليلية التفكيكية التركيبية) والتي وصفها الأديب الأمريكي هنري ديفيد ثورو بأنها مثل إحصاء عدد القطط في زنزبار. وهو جهد لا طائل من ورائه، إن لم يكن هناك إطار لعملية الإحصاء هذه، وإن لم يكن هناك هدف. والبحث الحقيقي ليس إحصاء عدد القطط في زنزبار، وإنما تصنيفها داخل أطر محددة. إن هذه الإمبريقية غير مبدعة وغير توليدية، فهي محصورة في فضاء التفاصيل الضيق، لا تشغل نفسها بما وراء التفاصيل (أنماطها - اتجاهاتها - علاقاتها . . . إلخ).

وقد علَّق أحد أساتذة اللغة العبرية على **الموسوعة** بقوله إن المسيري بعد كتابة الموسوعة لا يمكنه أن يأتي بجديد، أي أنني جمعت من المعلومات قدر استطاعتي، ولم يعد هناك المزيد. مع أن إسهامي الأساسي في الموسوعة، كما أراه، هو أنني توصلت إلى نموذج تحليلي، تتفرع عنه آليات تحليلية تُيسِّر علينا تحليل الظاهرة الصهيونية، تفكيكًا وتركيبًا، وفهمها دون اختزالها. وهناك مئات الموضوعات التي لم تتم دراستها بهذه الطريقة «الجديدة»! بل إنه قال إن معظم الموسوعة نُقل من الموسوعات اليهودية. فطلبت منه أن يقارن مدخل الدياسبورا في الجودايكا (الموسوعة اليهودية الإنجليزية) وفي **الموسوعة اليهودية** (العبرية)، وعرضت عليه أن أوفر له المادة المطلوبة لعله من خلال الدراسة المقارنة أن يرى الفرق بين الأطر التحليلية، فلم يفعل. وقد علَّق أحد طلبتي على هذا الموقف بقوله: إن الأستاذ المذكور معلوماتي، موضوعي متلق، يبحث عن المعلومة، والمعلومة بطبيعة الحال تتكرر. فعلى سبيل المثال، المؤتمر الصهيوني الأول عُقد في بال عام ١٨٩٧. هذه المعلومة توجد في كل الموسوعات بما في ذلك الموسوعة، ومن ثم فهو لا يرى سوى أنني نقلتها من الموسوعات الأخرى. أما الإشكاليات التي تثيرها **الموسوعة** حول هذه المعلومة مثل لِمَ عُقد هذا المؤتمر في ذلك التاريخ ولم يُعقد قبل أو بعد ذلك؟ ولِمَ عُقد في بال (حيث توجد جماعة يهودية صغيرة) ولم يُعقد في ميونيخ التي كانت توجد فيها واحدة

www.scantopdf.eu

من أكبر الجماعات اليهودية في العالم الغربي ؟ فهو لم يرها، فقد كان يبحث عن المعلومة ولم ير الإطار النظري أو التحليلي. وفي محاضرة لنفس الأستاذ عن **الموسوعة** قال إنه لا يرى أي أهمية للمجلد النظري الأول فالمسألة واضحة تمامًا.

وحاولت أن أوضح له مسألة الإطار والنمط هذه، فأخبرته بأن المؤتمر الصهيوني الأول عُقد في عام ١٨٩٧ لأن الفائض البشري اليهودي كان قد تزايد في شرقي أوربا وبدأ يهدد المواقع الطبقية والمكانة الاجتماعية التي حققها يهود وسط أوربا وغربيها، وأنهم هم الذين أسسوا الحركة الصهيونية للتخلص من يهود شرقي أوربا (ولذلك لم يكونوا يتحدثون عن «المسألة اليهودية» وإنما عن «المسألة اليهودية الشرق أوربية»). ولكن العنصر الحاسم كان هو اكتشاف هرتزل للإمبريالية كآلية غربية كبرى لوضع أي مشروع موضع التنفيذ، فكان هو الذي ربط المشروع الصهيوني بالمشروع الإمبريالي ومن ثم أمكنه أن يكتسح كل الجماعات الصهيونية الأخرى التي كانت لا تزال تتوهم إمكانية تنفيذ المشروع الصهيوني «بالجهود اليهودية الذاتية» (شبَّه أحد أصدقاء هرتزل هذه المحاولة بأنها مثل محاولة إفراغ المحيط بسطل ماء)، وعقد المؤتمر الصهيوني الأول. أما لماذا بال وليس ميونيخ ؟ فإن تفسير الأمر هو أن الصهاينة كانوا بالفعل يودون عقد المؤتمر الأول في ميونيخ، ولكن الجماعة اليهودية هناك اعترضت، خوفًا من أن يؤدي تبنيهم للرؤية الصهيونية إلى اتهامهم من قبل أعضاء الأغلبية بازدواج الولاء، ولذا عُقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية الصغيرة لا يملكون أي وسائل لممارسة أي ضغط.

ثم ضربت له مثلاً آخر بأرقام هجرة اليهود في العصر الحديث، وكيف أن هذه الأرقام يوظفها الصهاينة ليبينوا أن أعضاء الجماعات اليهودية كُتب عليهم «الشتات»، وأنهم يتنقلون من بلد لآخر بحثًا عن مأوى (مما يجعل مسألة إنشاء الدولة الصهيونية مسألة عادية وطبيعية بل وحتمية). أخبرته أن هذه الأرقام ذاتها (هذه المعلومة الصلبة) يمكن أن تُقرأ بطريقة مغايرة تمامًا. إذ بيَّنت أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث، لم تكن إلى فلسطين، حتى بعد تأسيس الدولة الصهيونية. كما أشرت إلى أن أغلبية يهود العالم قد قررت البقاء في أوطانها، التي لا تعدها منفى، ولا تعد نفسها في شتات، كما بينت أن الهجرة اليهودية في العصر الحديث تتبع نمطًا مجردًا. فقد كانت هجرة أساسًا إلى الأمريكتين وجنوب إفريقيا... إلخ، أي أنها هجرة داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي. ثم زدت المسألة تخصيصًا فبيَّنت أنها كانت أساسًا هجرة إلى البلاد

www.scantopdf.eu

الاستيطانية المتحدثة بالإنجليزية (الولايات المتحدة - كندا - جنوب إفريقيا - أستراليا - نيوزيلندا)، أي أنها هجرة داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني، وأنه يمكن فهم إسرائيل في هذا الإطار وداخل هذا النمط، فهي الأخرى قدمت تأسيسها داخل إطار هذا التشكيل الاستيطاني الأخير. كان الأستاذ يهز الرأس/ الكاميرا، فهو لم يكن يرى سوى المعلومة المصمتة: تاريخ عقد المؤتمر الصهيوني الأول وأرقام الهجرة.

والموضوعية المتلقية لا تترجم نفسها إلى إمبريقية سطحية وحسب، وإنما إلى براجماتية سطحية. فالبراجماتية تتجاهل الكليات والغايات والثوابت وتركز على الإنجاز. وكلمة «براجما» تعني «فعل»، وشعارها هو getting things done أي «الإنجاز». ومن أطرف الوقائع التي تبين جوهر البراجماتية بشكل كوميدي هو هذه اللافتة التي قرأتها عام ١٩٦٣ (إبَّان الحرب الباردة) في محل لغسيل وكيّ الملابس في الولايات المتحدة. تقول اللافتة: «فيما يلي الخطوات الواجب اتباعها في حالة حدوث انفجار نووي: ١ - قف هادئًا في مكانك. ٢ - ادفع الفاتورة. ٣- اهرب بعد ذلك بأقصى سرعتك»! تبين هذه اللافتة الكوميدية أن العقل البراجماتي لا يتعامل إلا مع المباشر والمحسوس والمكسب والخسارة بطريقة ضيقة الأفق. فأمام الانفجار الذري الذي قد يدمر الوطن أو ربما العالم بأسره، ينحصر اهتمام صاحب المحل في تحصيل أتعابه نظير قميص، أو ربما غسله وكيه، ويالله هول!

وإغفال البراجماتية للحقائق النهائية الكبرى يظهر في هذين الخطابين الطريفين اللذين قرأتهما في بريد القراء في مجلة تايم. كانت المجلة قد نشرت تحقيقًا عن محلات بلومنجديل Bloomingdale† في نيويورك، وهي من أكبر المحلات وأفخمها. قال الخطاب الأول: «إن من قال إن السعادة لا يمكن شراؤها بالمال، لم يسمع عن محلات بلومنجديل». أما الثاني فقد قال إنه سيكتب في وصيته أن يحرق جثمانه وينثر الرماد في بلومنجديل حتى يضمن أن تزوره زوجته مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. إن قضايا نهائية كلية مثل الموت والتراحم والسعادة توضع داخل السقف المادي فيصغر حجمها وتفقد تركيبيتها ويصبح من الممكن التعامل معها بسهولة ويسر ويمكن إطلاق النكات عليها (ولعل هذا يفسر خفة دم الأمريكان ومقدرتهم على إطلاق النكات).

والأسلوب البراجماتي في التفاوض يذهب إلى أنه من الممكن إرجاء النظر في القضايا

www.scantopdf.eu

النهائية الكبرى والتركيز على القضايا التي يمكن حلها. إذ إنه بطريقة أو بأخرى في وقت ما في مكان ما في أثناء المفاوضات somewhere, somewhat, somehow, some-time, something might emerge قد يظهر شيء ما يساعد على حل للقضايا النهائية. وهي طريقة للتفاوض تُعقِّد الأمور عن طريق تبسيطها، وينتهي الأمر بأن صاحب المدفع الأكبر هو الذي يفرض رأيه، وذلك بسبب غياب أي مرجعية كلية. وأتصور أن هذا هو ما حدث في كامب ديفيد وفي أوسلو.

والمصدر الأساسي لرفضي لنموذج الموضوعية الفوتوغرافية والمعلوماتية (المادية) هو تحولي الفكري الذي أشرت إليه (الذي يؤكد مسئولية الإنسان ومقدرته على التجاوز والإبداع). كما كانت هناك وقائع كثيرة في تجربتي الشخصية جعلت من العسير عليّ السقوط في الموضوعية المتلقية. فعلى سبيل المثال، حينما كنت في الولايات المتحدة وجدت أنني أنظر للأشياء نظرة مختلفة عن نظرة أقراني الأمريكيين. وقد عشت مدة طويلة في المجتمع الأمريكي، وهو مجتمع علاقاته متشابكة، وكان لابد لي من تفسيره حتى يمكنني التعامل معه، الأمر الذي يتطلب نظرة أعمق للظواهر لا مجرد تلقٍّ سطحي لها.

وفي الجزء الخاص عن التعاقد والتراحم ضربت بعض الأمثلة على أهمية النموذج في تجاوز المعلوماتية والموضوعية المتلقية وصولاً إلى المعنى العميق للأشياء. ويمكنني هنا أن أضرب مثلاً آخر. كنت أقف أمام مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، وكانت تقف بجواري عائلة أمريكية مكونة من رجل وزوجته وابنيهما، وكان كل واحد منهم يمسك بآلة تصوير يصوِّر بها نفس المنظر. يمكننا القول إن الهدف من التصوير هنا هو تسجيل المنظر، ولكن هذا في تصوري مثل جيد على الموضوعية المتلقية، لأنه لو أن الهدف هو تسجيل المنظر وحسب، فإن آلة تصوير واحدة تكفي. ويمكننا القول إن هذا تبذير وسفه، وهذا موقف أخلاقي لا يفسر الظاهرة وإنما يصدر حكماً أخلاقياً عليها. والحكم الأخلاقي غير عملية التفسير التي تؤدي إلى الفهم. وأتصور أنه من خلال إعمال العقل والاجتهاد، والبحث عن الهدف الأعمق، يمكننا القول إن أعضاء الأسرة يودون تجميد اللحظة (نوع من أنواع الأزلية المؤقتة العلمانية) بحيث يمكن لكل واحد منهم أن يحملها معه إلى منزله. أو لعل التصوير أصبح جزءاً من السياحة، ولذا لا تكتمل المتعة إلا مع تصوير المشاهد. قد يقول قائل إن هذين التفسيرين يجنحان نحو القراءة بين السطور أكثر من اللازم، وقد

www.scantopdf.eu

يكونان إجهاداً لا اجتهاداً! ولكن يمكن الرد على هذا بالقول إنهما على الأقل لا يسقطان في التفسيرات النمطية الجاهزة التي تساوي بين كل الظواهر والأشياء .

ومما لا شك فيه أن دراستي الأدبية (خاصةً في جامعة الإسكندرية) وضرورة النظر إلى العمل الأدبي ككل عضوي متماسك، جعل عملية الرصد بالقطاعي هذه عملية مملة ومستحيلة. كما تعلمنا أن سطح العمل الأدبي يخبئ بنية كامنة عميقة هي وحدها التي تنطق بالمعنى المركب للنص. وقد قوضت المرحلة الماركسية في حياتي فكرة الرصد الموضوعي التراكمي المباشر، فالماركسية هي رؤية كلية نقدية للواقع ترى الواقع في ترابطه وفي كليته. وترفض رؤية سطح الأشياء بحُسبانها الحقيقة، بل تحاول النفاذ إلى بنيتها الكامنة أو جوهرها، ثم تطرح رؤية ثورية باسم الجوهر (أو قوانين التاريخ)، متجاوزة الحقيقة المادية القائمة. وهذا لا يختلف كثيراً عن الرؤية الرومانتيكية للواقع، فقد تعلمت من الشعراء الرومانتيكيين أن الجوهر الكامن وراء الطبيعة أهم من سطحها، وهو الأمر الذي أكده أيضًا معظم مفكري القرن التاسع عشر، الذين كانوا ينشدون الوصول إلى وحدة شاملة تتجاوز التعددية المفرطة والتبعثر والتشتت، تلك الأمور التي كانت تسم واقعهم المباشر. وقد قرأت بعض أعمال جيورجي لوكاش الذي كان يؤكد الجوانب الإنسانية في فكر ماركس (مقابل ما تعلمته في مصر عن أهمية الاقتصاد «الموضوعي»). كما أنني قرأت كثيراً من أعمال روجيه جارودي Roget Garaudy، حينما كان منظّراً ماركسيًا، وكان يؤكد مفهوم الاغتراب والإرادة وبعض مصادر الماركسية غير المألوفة (مثل فلسفة فيخته). ومن الأعمال الأخرى التي قرأتها بشغف مؤلفات عالم الاجتماع الإنجليزي (من أصل بولندي) زيجمونت باومان Zygmunt Bauman، وهو مهتم بقضايا الحداثة، ويبيِّن أن وراء سطحها اللامع المبهج أعماقًا مظلمة، وأن النظرة السطحية المتلقية للحداثة لا تفيد كثيراً .

ومما عمَّق هذا الاتجاه نحو رفض الموضوعية الفوتوغرافية دراستي لبعض أعمال عالم الاجتماع الألماني الشهير ماكس فيبر Max Weber وتأكيده على دوافع الفاعل الداخلية في مقابل سلوكه الظاهر، وتمييزه بين طريقة دراسة أسرة من الدجاج وأسرة إنسانية، فنحن لا نعرف شيئًا عن دوافع الدجاج الداخلية، ولذا فنحن نرصد سلوكها من الخارج. أما الأسرة الإنسانية فالمعنى الداخلي الذي تسقطه على الأشياء أمر مهم يمكننا تخيله ونحاول التوصل إليه، أي أن رصدها يكون من الخارج والداخل. كما أن تأكيد فيبر على

www.scantopdf.eu

النتائج غير المقصودة للفعل الإنساني لعب دوراً كبيراً في عملية رفض الموضوعية المتلقية. وحينما قرأت في علم الأنثروبولوچيا عرفت مدى تأثير اللغة في الإدراك، وأن الإنسان لا يدرك الأشياء كما هي بطريقة فوتوغرافية، وإنما يلوّنها بمقولاته الإدراكية.

وقد واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية هذه حينما كنت أكتب رسالتي للدكتوراه. إذ اكتشفت أن عدد المقالات والكتب التي تُنشر سنويًا عن موضوع بحثي كثير للغاية، وأنني - كما أشرت من قبل - لو أردت الإحاطة بها كلها لقضيت بقية عمري أقرأ وأتلقى دون أن أبدع وأنتج، فقررت أن أستخدم عقلي، وأن أستبعد بعض المواد التي رأيت أنها ليست على صلة كبيرة بموضوعي. كما قررت الاعتماد على رؤيتي لموضوع الرسالة، وقلت لنفسي ساعتها إنه من الصعب أن تكون رؤية الآخرين (من الأمريكيين) مشابهة لرؤيتي أنا المصري العربي المسلم.

كما واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية وبحدة في أثناء محاولتي تعريف الصهيونية. فتعريفات الصهيونية التي وردت في بطون الكتب الغربية (بما في ذلك **الموسوعة البريطانية**) تتحدث عن أن «الصهيونية هي حركة تحرير الشعب اليهودي» أو «عودة اليهود لوطنهم القومي أو أرض أجدادهم أو الأرض التي وعدهم الإله إياها». وهنا طرحت على نفسي السؤال التالي: «هل تتطلب الموضوعية مني نقل هذا التعريف بحذافيره، برغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها، مثل أن فلسطين ليست وطن العرب، وإنما وطن اليهود، وأن اليهود شعب واحد؟ وإن رفضت هذا التعريف، هل يكون هذا من قبيل الذاتية؟». وينطبق الشيء نفسه على ما يأتينا من أخبار، فهل الموضوعية تتطلب أن أوردها كما هي، والذاتية عكس ذلك، برغم إدراكي أن هذه الأخبار تم انتقاؤها بعناية، وأنه تم في المقابل إخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها؟

إن مثل هذه الحقائق حقائق جزئية للغاية، يُطلق عليها عبارة «أكاذيب حقيقية» (بالإنجليزية: ترو لايز True lies)، ويمكن أن نطلق عليها بالعربية «حقائق كاذبة»، أي كلمة حق يُراد بها باطل. فمثل هذه الحقائق معلومات صلبة دون شك، ووقائع لا مراء فيها، فهي حقيقية، ومع هذا تم توظيفها بطريقة لا تتفق والحقيقة الكلية، ومن ثم فهي «أكاذيب».

إن النقل الفوتوغرافي أمر مستحيل، إذ يقوم العقل حتمًا بعمليات حذف وإبقاء

www.scantopdf.eu

وتضخيم وتهميش، ومن ثم نجد أن الفكر الغربي الذي يطرح نفسه بحُسبانه فكراً موضوعيًا، هو في واقع الأمر فكر يخبئ مفاهيم محددة (وإلا لما كان فكراً ولأصبح مجرد أفكار). ولذا فالموضوعية في السياق العربي تعني في واقع الأمر نقل الأفكار الغربية الكامنة بلا وعي وبدون إدراك.

ويمكنني أن أذكر هذه الواقعة التي قوّضت من قبضة الموضوعية الفوتوغرافية والنزعة المعلوماتية، فقد كانت درامية ومثيرة. أذكر أنني كنت في إحدى الجامعات العربية وقام أحد أعضاء هيئة التدريس بإلقاء محاضرة عن «ميريديث Meredith والإحساس بالكوميديا»، وكانت المحاضرة عبارة عن معلومات متراكمة: معلومة فوق معلومة. ومع نهاية المحاضرة، لم يكن هناك ما نقوله، فالمعلومات في الكتب، وإن كان قد أخطأ في معلومة أو اثنتين فليست هذه مشكلة كبيرة، إذ يمكن تصحيح المعلومات. ولكن مع هذا أحس الحاضرون بعدم الارتياح، فقلت للسيد المحاضر: «يا دكتور فلان أنت لم تقل لنا شيئًا، وقذفتنا بالمعلومات دون أن يربطها رابط». فأجاب: «أردت أن أكون موضوعيًا». فقلت له: «يا ليتك كنت أكثر ذاتية وقلت لنا شيئًا غير أطنان المعلومات». فضحك الحاضرون، ولم يفهم صاحبنا شيئًا، إذ كان مشغولاً بتلقي التهاني ممن يخلطون بين الفكر وحشد المعلومات «لأنه أتى بمعلومات قيمة».

ويبدو أن المعلوماتية والموضوعية المتلقية أصبحتا من أهم أمراض العصر، فحينما ذهبت زوجتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٤، كان عليّ أن ألحق بها بعد مرور ستة شهور تقريبًا. ولكني اكتشفت أن عليّ أن أحصل على موافقتها الكتابية حتى تصدر لي إدارة البعثات الفيزا المطلوبة وتذكرة السفر، إذ يبدو أن القانون المصري في هذه الحالة لا يفرق بين الذكر والأنثى ويتحدث عن «ضرورة موافقة عضو البعثة». وبالفعل كتبت زوجتي خطابًا للبعثات تبين لهم فيه أنها موافقة على سفري. كنا حينما نذكر لهم هذه الواقعة في الولايات المتحدة يأخذونها على أنها مؤشر على مدى «تقدم» مصر وعلى مدى «تحرر» المرأة فيها، ويقدمون لنا التهاني على بلدنا الذي يعرف المساواة بين الجنسين؛ وهذا بطبيعة الحال كان بعيدًا كل البعد عن الواقع، فكانت التهاني تسبب لنا الحرج بدلاً من الفخر. وما حدث هو أن أصدقاءنا الأمريكان كانوا يهملون الصورة الكلية والواقع المتواتر ويركزون على الواقعة (أو المعلومة)، ويفضلونها عن النمط العام المتكرر، فيصبح بوسعهم أن يفرضوا عليها أي معنى يريدون، وهذه إحدى أهم سمات المعلوماتية

www.scantopdf.eu

والموضوعية المتلقية. وقد تفنَّنت محطة الـ CNN في تفتيت كل الظواهر وتحويلها إلى وقائع ومعلومات متناثرة، الهدف منها هو التسلية، حتى إن نشرة الأخبار تحوَّلت إلى نوع من أنواع التسلية يعطيك المعلومات فور حدوثها، ولكنها معلومات لا معنى لها، لأنها منغلقة على ذاتها، منفصلة عن أي نمط، ومن ثم لا دلالة لها.

وقد استشرى داء الموضوعية المتلقية والمعلوماتية إلى درجة كبيرة، حتى إن أحد مراكز البحوث أرسل لي رسالة يطلب مني فيها أن أكتب دراسة في موضوع يهود العالم. فرحبت بالأمر. فأرسلوا لي بكتيب فيه الإرشادات بخصوص حجم المقال والمنهج الذي ينبغي اتباعه. وقد جاء في هذا الكتيب بالحرف الواحد «يجب ذكر المعلومات بلا تحليل»، وهو أمر في تصوري مستحيل. ولكنني مع هذا قررت الاستمرار فكتبت مقالاً مليئًا بالمعلومات والأرقام التي تم تقديمها من خلال نموذج تحليلي كامن، بحيث إنه لا يمكن فصل الأرقام عن النموذج! وقُبل المقال، إذ كان مظهره معلوماتيًا واضحًا (جداول - إحصاءات . . . إلخ). أما مخبره فكان تحليليًا، ومن ثم وجد طريقه إلى النشر.

الموضوعية المتلقية والجامعة

اكتشفت أن كثيرًا مما أتصور أنه ظواهر أكاديمية مرضية هو نتيجة هذا الموقف المتلقي للواقع. حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩م، أوصاني السيد رئيس القسم (في كلية بنات عين شمس) أن تضم محاضراتي ما لا يقل عن عشر معلومات أنقلها للطالبات، اللائي كان من المفترض فيهن تلقي هذه المعلومات فيزددن معرفة. ثم أضاف أنني لو أنجزت مسألة العشرة هذه فإن هذا سيرضيه تمامًا.

وقد أراد السيد رئيس القسم أن يتدخل في محاضراتي ليتأكد من أنني أعطي الطالبات المعلومات العشر إياها، فقررت أن أبقيه بعيدًا عن مجالي وعن طريقتي في التدريس، وهذا من حقي. ولكن بدلاً من المواجهة، استخدمت السلاح المعلوماتي بمكر ودهاء، إذ أخبرته أنني أعطي الطالبات خلفية تاريخية قبل أن أتناول النظرية النقدية الرومانسية نفسها، ولذلك فإنني سأدرس معهن الناقد لوث Lowth. ولوث هذا ناقد ليست له أي أهمية، ولم يسمع به أحد لهذا السبب. ولكن بدلاً من أن يجادلني السيد رئيس القسم في مدى أهمية هذا الناقد وجدوى تدريس نظرياته لطالباتي بكلية البنات، لزم الصمت، لأنه

www.scantopdf.eu

فوجئ بمعلومة لم يسمع بها من قبل، ولم يجرؤ على أن يسأل عن قيمتها أو أهميتها، فمثل هذه الأسئلة «ذاتية» ليس لها أي أساس موضوعي متلقّ!

والموضوعية المتلقية تعنى فى واقع الأمر الإذعان والخضوع أمام الواقع المادى، ورفض فكرة أن العقل يقوم بترتيب وصياغة المعطيات الحسية التى تصله، وأن الأديب من حقه إعادة صياغة الواقع لينقل رؤيته. ولعل من أطرف الأمثلة على ذلك ما سمعته فى محاضرة فى النقد الأدبى، ألقتها أستاذة مشهورة، وجهت نقداً لإحدى الروايات لأن إحدى الشخصيات انتحرت بأن ألقت بنفسها من صخرة فى خليج إستانلى، وقد أشارت الأستاذة، بموضوعية بالغة، إلى أنها عاينت كل الصخور فى هذا الخليج، ووجدت أنها منخفضة للغاية ولا يمكن لأحد أن ينتحر بإلقاء نفسه من عليها. وقد أطلقت على هذه الطريقة فى التفكير والنقد «مدرسة صخرة إستانلى فى النقد الأدبى».

وتتضح سيطرة النموذج المعلوماتي على الجامعة في ظاهرة الإملاء التي أصبحت شكلاً أساسيًا من أشكال التعليم في الجامعة يفترضها الطلبة كما يفترضها الأساتذة وتصبح أساسًا لعقد اجتماعي صامت بينهم. وإن حاول أحد الأساتذة أن يغير من هذا الاتجاه، ويبدأ في إعطاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار وإعمال العقل يجد نفسه أنه يقف ضد التيار الأساسي. كنت أدرس مرة مع الطالبات قصيدة للشاعر وليام بتلر ييتس (وكانت من أحب القصائد إلى قلبي، وهو يكاد يكون شاعري المفضل). واكتشفت أنهن لم يقرأن القصيدة ولا يعرفن معنى عنوانها (Lapis Lazuli وهو حجر ثمين يسمى اللازورد). فقررت أن أبيّن لهن خطورة التلقي المحض، وبدأت أقول: «إن Lapis Lazuli هو نوع من أنواع الطيور الإفريقية يشتهر بمقدرته على أن يحط على ظهور التماسيح، وفي حضارة الأزتيك القديمة كانت الكلمة تشير إلى طائر خرافي يظهر كل مائة عام ويبصق على الأرض. ولكن أحد المعاجم أورد أن الـ Lapis Lazuli نوع من الطعام إن أكله الإنسان لا يشبع البتة». وانهمكت الطالبات في كتابة كل كلمة قلتها بعناية شديدة. ثم توقفت وأخبرتهن أنني كنت أمزح وأن اللابيس لازولي هو حجر اللازورد، وأنني أردت أن أبين لهن أنهن حولن أنفسهن إلى إماء متلقيات لكل ما أقوله، ففقدن المقدرة على التفاعل والحوار والحكم.

ثم يلي الإملاء طبع المذكرات وبيعها للطلبة «بسعر معقول» أو مغالى فيه حسب درجة

www.scantopdf.eu

طمع الأستاذ. وتصبح القضية هي ثمن المذكرة، ومن هنا مشكلة ما يسمى «الكتاب الجامعي»، وهو مفهوم يدل على مدى الانهيار الذي يعاني منه التعليم الجامعي. سمعت أن أستاذًا كبيراً كان عنده ارتباط ما، ولذا كان من الصعب عليه إلقاء محاضرة الدراسات العليا الخاصة به، فولى هذه المهمة معيدًا، وأعطاه الكراسة التي تحتوي على المعلومات. ويبدو أن المعيد كان حسن النية أو خبيثها للغاية، إذ إنه ذهب إلى المحاضرة وأملى على الطلبة كل ما في الكراسة مرة واحدة. وهاج الأستاذ الكبير وماج حينما علم بالأمر، إذ لم يكن هناك ما يقوله بعد ذلك! وعلى العكس من هذا، نجد بعض الأساتذة ذوي الضمير الحي يسقطون بطريقة مختلفة في الموضوعية الفوتوغرافية. أعرف أحد الأساتذة كان يريد أن ينقل إلى الطلبة كل المعلومات والتفاصيل المتوافرة لديه بخصوص القصائد التي يدرسها. فكانت النتيجة أنه كان يعطي نصف قصيدة في فصل دراسي بأكمله، ثم يهرول بعد ذلك لتغطية بقية النصوص ويعطي الطلبة جرعة أقل من المعلومات! ولعل هؤلاء لم يسمعوا تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلانًا قد حفظ البخاري. فقال: «لقد أضيفت إلى البخاري نسخة جديدة!».

ونصل إلى الهوة في «الدروس الخصوصية»، إذ تنحصر العملية التربوية في تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات وكيفية اجترار المعلومات على ورقة الإجابة، وكنت في أواخر أيامي في الجامعة إن بدأت في التأمل الفلسفي في أحد النصوص وإن أثرت قضية فكرية تسألني الطالبات: «هل هذا ضمن المقرر؟ هل هذا سيأتي في الامتحان؟». وهكذا تنتصر الحقائق الصماء التي لا معنى لها، وتضيع الحقيقة ويذوى المعنى.

وغني عن القول إن فلسفة الامتحانات تنبع من نفس النموذج، إذ يصبح هم الطلبة هو أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ وإظهار معرفتهم بأكبر قدر منه في الامتحان. وحيث إني كنت أحاول إنجاز شيء مختلف تمامًا في محاضراتي، فإن فلسفة امتحاناتي كانت هي الأخرى مختلفة. وفي إحدى السنوات، كنت أدرّس مادة الشعر لطالبات السنة التمهيدية في الدراسات العليا، وأخبرت الطالبات أنني لا أمانع في أن يستشرن بعض النصوص في الامتحان، فالقضية - بالنسبة لي - هي أن يعملن عقولهن ويقمن بمقارنة نصين شعريين أو ثلاثة ويكتبن مقالاً نقديًا مقارنًا. ولكن السيدة رئيسة اللجنة عَدَّت هذا نوعًا من أنواع الغش. وعبثًا حاولت أن أبين لها أن القضية ليست «تذكر» النص وإنما كيفية التعامل معه نقديًا وإبداء وجهة نظر فردية، وأن وجود النص بين أيدي

www.scantopdf.eu

الطالبات للاقتباس منه ليس غشًا من هذا المنظور. ولكن هيهات، فالأستاذة المذكورة كانت محصورة في رؤيتها المعلوماتية الموضوعية الضيقة.

أذكر مرة أنه تم اختياري (لسبب لا أعرفه) لإجراء المقابلات الشخصية مع الطالبات المرشحات للقب «الفتاة المثالية». فجلست مع أعضاء اللجنة، وفوجئت بأن الأسئلة كلها معلوماتية بشكل متطرف، تدور في إطار ما يسمَّى «المعلومات العامة» (والتي أسميها «معلومات خاصة جدًا» لأنها تدور في نطاق ضيق جدًا ولا توجد وراءها رؤية متكاملة). ومن الأسئلة التي وُجهت إلى الطالبات ما يلي: ما عدد محافظات مصر؟ كم تبعد شبين الكوم عن القاهرة؟ ما لون علم الدولة الفلانية؟ (ولا يختلف هذا كثيرًا عن مسابقات التليفزيون المصري في الوقت الحاضر، والتي تفترض أن الثقافة هي حشد المعلومات («المعلومة» كما يقولون) الخاصة بعالمي السينما والكرة. ولذا فهم يسألون أسئلة مثل: ما آخر أفلام إسماعيل يس؟ ما الأفلام التي سميت فيها كل من نادية الجندي ومديحة يسري باسم حكمت؟ ما المباراة التي أحرز فيها اللاعب فلان ثلاثة أهداف في النصف الأول من المباراة؟) والطريف أن كثيرًا من الطالبات يعرفن مسبقًا مثل هذه الأسئلة المعلوماتية التي ترد في معظم الامتحانات، ولذا توجد أوراق تضم الإجابة عن هذه الأسئلة، يحفظنها عن ظهر قلب.

بعد أن تزايدت الأسئلة المعلوماتية، ضحكت وقلت لأعضاء اللجنة: «لو دخلت مثل هذا الامتحان لرسبت، ومن ثم ففرصة أن أصبح فتاة مثالية منعدمة». فضحكوا ووافقوني على نقدي المستتر، وغيَّرنا من نوعية الأسئلة. وبدأنا نسأل الطالبات أسئلة تتطلب قدرًا من الثقافة العامة (بالفعل) والذكاء والخيال. فسألت إحداهن على سبيل المثال: لو تقدم للزواج منك شخص من المؤمنين بالنظرية الداروينية، هل تقبلينه أو ترفضينه؟ ولِمَ؟ ما الفرق بين الماركسية والفرويدية؟ ما عيوب النظم الشمولية؟ وما عيوب النظم الديموقراطية؟ ما أثر السينما وكرة القدم على الناس؟ ما المقطوعات الموسيقية المحببة إليك؟ ولِمَ؟ وكانت النتيجة أن كثيرًا من محترفات امتحانات المعلومات لم يتم اختيارهن، واختيرت بعض الفتيات اللائي يتسمن - في رأيي - بقدر من الثقافة والذكاء والخيال.

وكثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثًا» على الإطلاق، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشيفية الأولية بعد تصنيفها سطحيًا وبعد ترتيبها بطريقة

www.scantopdf.eu

لا تستند إلى منطق واضح أو كامن. وهناك حيلة أخرى، وهي أن يكون البحث عبارة عن ورقة تتحدث عن أطروحة معروفة مسبقًا يتم توثيقها من خلال حشد مصادر كثيرة ومراجع عديدة ومعلومات غير مترابطة. لذا حل التوثيق (الموضوعي المتلقي) محل الاكتشاف والتفكير والتفكيك والتركيب (الذاتي الإبداعي). ومن ثم ظهر داء **النصوصية** (الذي سأتناوله بالتفصيل فيما بعد)، وهو أن يحشد الباحث أقوال الآخرين، الواحد تلو الآخر، تأييدًا لكلامه (وهو استمرار علماني للعنعنة والإسناد والحفظ، السبيل الوحيد في الماضي للتمحيص وحفظ الذاكرة التاريخية). وقد أخبرني أحد كبار الأساتذة الموضوعيين بنظريته في مسألة البحث العلمي هذه. فهو يرى أن كل أستاذ جامعي يمتلك قطعة واحدة من العجين لا أكثر ولا أقل (مجموعة من المعلومات المتوافرة لديه) ويقوم بتشكيلها حسب الطلب. فهي تارة مقال (مربع)، وتارة أخرى بحث في مؤتمر (مستدير)، وتارة ثالثة حديث إذاعي (كالإصبع)، ولكن في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير هي عجينة واحدة (أي مجموعة من المعلومات المحددة) تأخذ أشكالاً عدة بلا اكتشاف ولا بحث ولا تركيب. وكل ما سيحدث للعجينة أنه قد يُضاف لها بعض المعلومات التي تزيد من حجمها وامتدادها الأفقي. (ولا أدري ما حجم هذه العجينة الآن بعد الإنترنت وثورة المعلومات!). وهذا ما أسميه «التوثيق الأفقي» وهو أن يأخذ الباحث أطروحة متفق عليها تمامًا بين مجموعة من الباحثين مثل أن «مصر هبة النيل» أو «الصهيونية حركة عنصرية»، ويقوم بتوثيقها عدد هائل من المراجع، ولكنه لا يلقي أي أضواء جديدة عليها، ولا يبين خصوصيتها ولا يفسرها، نمو توثيق أفقي لأنه رص المراجع راصًّا الواحد بجوار الآخر، دون أن تؤدي العملية بطبيعة الحال إلى أي تحول أو تغير أو ارتفاع عن السطح الأفقي المعطي.

كنت ذات مرة أناقش رسالة موضوعها العنصرية الصهيونية. ولم تزد الرسالة عن إثبات أن الصهيونية حركة عنصرية، وقد تم ذلك من خلال مئات الاقتباسات، كان آخرها (في الصفحات الأخيرة) اقتباسًا يبلغ طوله ثلاث صفحات، كما لو كانت ذات الباحثة قد ذابت تمامًا ولم يبق أمامها سوى «النقل» (سميته «طريق النقل السريع» في دراستي عن جمال حمدان). وقد بدأت مناقشتي بأن أخبرت الباحثة بأنها لم تأت بجديد على الإطلاق، إذ إنها لو سألت عربجيًا (سائق حنطور) في ميدان التحرير عن الصهيونية، لقال: «الصهيونية عنصرية يا ست هانم، عنصرية طبعًا». وأخبرتها أنه كان عليها أن

www.scantopdf.eu

تتعامل مع السمات الخاصة للعنصرية الصهيونية ؛ جذورها - مسارها - مستقبلها ؛ أي شيء إلا أن تثبت ما هو واضح وما هو معروف.

ونفس النموذج (أي نموذج الالتزام بالمعلوماتية والموضوعية المتلقية) يتبدى في الإجراءات التي تتخذ الآن للتسجيل لدرجة الدكتوراه أو الماچستير. حينما كنت على وشك اختيار موضوع لرسالتي للماچستير عام ١٩٦٠، ناقشت الأمر مع د. محمد مصطفى بدوي بشكل شفهي، واستقر الأمر على أن أكتب رسالة عن موضوع «أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والشعر الرمزي الفرنسي (وبخاصة شعر تشارلز بودلير Charles Baudelaire) على شعر إبراهيم ناجي». فوافق القسم، وبدأت في كتابة الرسالة ولم أنته منها لحصولي على بعثة. وحدث نفس الشيء في اختيار موضوع الدكتوراه في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧. فبعد انتهائي من المتطلبات الأكاديمية الأخرى: مقررات في تاريخ اللغة الإنجليزية - امتحان في الفرنسية - امتحان في اللغة اللاتينية - مقرر في شعر تشوسر وآخر في شعر ملتون، ثم الامتحان الشفهي الشامل. اتصلت بأستاذي تليفونيًا واقترحت عليه الموضوع، واتفقنا على عنوان الرسالة: The Critical Writings of William Wordsworth and Walt Whitman : A Study in the Historical andAnti-Historical Imagination أعمال وليام وردزورث ووولت ويتمان النقدية: دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ». وقد اتصل بي أستاذي تليفونيًا وسألني عما إذا كنت أعني «غير تاريخي unhistorical» أم «معاديًا للتاريخ anti-historical». فأكدت له أنني أعني «معاديًا للتاريخ» وشرحت له وجهة نظري. وفي اليوم التالي قام هو بعرض الأمر كله على لجنة الدراسات العليا التي وافقت بدورها على موضوع الرسالة. كانت هذه هي الإجراءات حتى أوائل السبعينيات، أما الآن فيُطلب من الطالب (في كثير من الجامعات في مصر أو في الولايات المتحدة) أن يقدم تقريراً مفصلاً عن الموضوع الذي سيكتب عنه وعن أطروحته، يرفق به قائمة بالأدبيات المتصلة به. وهذا الإجراء يحمي بعض الطلبة (متوسطي الذكاء) من الدخول في طريق لن يؤدي بهم إلى شيء، ولكنه يجعل الهدف من الرسالة عملية توثيقية، لأن كل شيء لابد أن يكون معروفًا مسبقًا. (مع العلم أنني في رسالتي للماچستير والدكتوراه قد توصلت إلى نتائج تقف على طرف النقيض من الأطروحة التي كنت أنوي إثباتها، كما سأبيّن بالتفصيل فيما بعد).

ومن الظواهر الأكاديمية المرضية الأخرى، الناجمة عن نموذج الموضوعية المتلقية،

www.scantopdf.eu

تصور أن موضوع الرسالة أو البحث يجب ألا يكون قد سبق الكتابة فيه، بمعنى أنه يجب أن يُكتب مرة واحدة عن نفس الموضوع. والتصور الكامن هنا أن «الموضوع» الظاهر هو ذاته الموضوع الأساسي الكامن، وأن الرسالة تُكتب عن موضوع ما، تتوافر عنه مجموعة من المعلومات (الحقائق) على الباحث جمعها ومراكمتها، وأن الأسئلة الخاصة بموضوع ما هي أسئلة عامة ومحددة وكامنة داخل الموضوع نفسه، يسألها جميع الباحثين (الموضوعيين) بغض النظر عن سلوكهم وخبرتهم وتجاربهم ورؤيتهم. أما أن يكون موضوع الرسالة قضية (فكرية أو معرفية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية) خاصة يشعر بها الباحث تولد أسئلة محددة يطرحها الدارس على نفسه وعلى غيره ويحاول الإجابة عنها من خلال قراءته للنص موضع الدراسة، فهذا أمر غير وارد. ومن الواضح أن وهم الموضوعية المتلقية والمعلوماتية قد هيمن على العقول وساد التصور بأن الموضوع لا تتفاعل معه ذات وإنما هو موضوع مكتف بذاته، وأن الدارس، بالتالي، يشبه شارلوك هولمز، الذي عليه أن يحل لغز الموضوع وأن يصل إلى إجابة عن كل الأسئلة العامة المحددة الكامنة في الموضوع لا في ذات الدارس.

وانطلاقًا من فكرة الموضوعية المتلقية، التي تسقط حق الاجتهاد، أصبح من المعتاد أن يُقال لطالب تقدم بموضوع رسالته: «لقد كُتب في هذا الموضوع من قبل»، وكأن وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية، وكأن المعرفة الإنسانية معرفة واحدية تراكمية: مجموعة من الأفكار أو المعلومات، التي تتراكم بعضها فوق بعض، مثل المعادلات الرياضية أو القوانين العلمية. وفي المحاولة التي بذلتها زوجتي لكي لا نسافر إلى الولايات المتحدة مرة أخرى، على أن تكمل دراستها العليا هنا، تقدمت برسالة عن فكر الشيخ محمد عبده التربوي، فقيل لها إن هناك طالبًا في الأزهر يكتب عن الموضوع نفسه. وقُتل الاقتراح على الفور وكأن رسالة واحدة عن فكر محمد عبده ستصل إلى القول النهائي الفصل (ومن المفارقات أن الطالب المذكور لم يكمل بحثه، كما أن هناك عشرات البحوث التي كُتبت بعد ذلك عن نفس الموضوع).

وتعبيرًا عن نموذج الموضوعية المتلقية الذي استشرى في الرسائل والمؤلفات في العلوم الاجتماعية في البلاد العربية ما يسمَّى بالاستبيان، وهي مجموعة أسئلة توزع على «أعضاء العينة» الذين يجيبون عنها عادةً بنعم أو لا، وتُختزل القضية إلى الأسئلة التي يطرحها الدارس والأجوبة التي يتلقاها، ثم يحاول بعد ذلك التوصل إلى نتائج إحصائية

www.scantopdf.eu

دقيقة، ثم يملأ رسالته بالجداول التي تدخل الغبطة على نفس الممتحنين نظراً لدقتها العلمية (وهم يعنون الموضوعية الفوتوغرافية في واقع الأمر). ومعظم هذه البحوث يُقال لها «ميدانية»، أي أنها لا تتعامل مطلقًا مع الإطار النظري ولا تتساءل بخصوصه، وإنما تحاول أن تطبق مقولة نظرية ما على حالة ما أو على عدة حالات. وهذه الدراسات الميدانية هي الأخرى عملية تطبيق صماء متلقية تأتي بنتائج متوقعة متضمنة في المقدمات النظرية، ومن ثم فهي ليست بحثًا ولا تعدل شيئًا من النظرية السائدة (مع أن هذا في تصوري هو هدف العلم). وعادةً ما تُفضل الإحصاءات والدراسة الميدانية لأنها «مفيدة» مما يبين أن الواقع المباشر سيطر على عقل الدارس، كما توصف بأنها «دقيقة» مما يدل على أن العلوم الطبيعية (وهي علوم تتجاوز في دقتها العلوم الإنسانية والاجتماعية) تلقي بظلالها الكثيفة على العلوم الإنسانية، كما تدل على أن هذه المناهج ترى الإنسان بحُسبانه كائنًا طبيعيًا.

ونفس النموذج يتضح في مناقشة الرسائل، إذ تتحول المناقشة إلى مناسبة لاستعراض المعلومات. فيسأل الأساتذة الممتحنون الطالب لمَ لَمْ يأت بكذا، ولمَ لَمْ يذكر كذا، وأنه كان بإمكانه أن يطنب في الحديث في هذه النقطة. (واجهتني المشكلة نفسها حينما كنت أعرض ما كُتب في **الموسوعة** على بعض المتخصصين. إذ كانوا دائمًا يقولون إن هذا لا يكفي . . لا يمكن أن تكتب ثلاث صفحات فقط عن الكنعانيين. وعبثًا كنت أحاول أن أبين لبعضهم أن من يقرر الحجم هو أنا في ضوء الحجم الكلي **للموسوعة** وفي ضوء مدى أهمية الموضوع من منظور الموسوعة). كنت أخبرهم بأن المدخل عن إسبينوزا في **موسوعة ١٩٧٥** كان لا يزيد عن خمسة سطور. ولكن بعد تطوير نموذج الحلولية، أصبح إسبينوزا في غاية الأهمية، ومن ثم أصبح نصيبه في الموسوعة مدخلان يبلغ كل منهما عدة صفحات.

وقد وصل مرض الموضوعية المتلقية - كما هو متوقع - إلى المعايير التي يُرقّى حسبها الأساتذة. فعندما بدأت إعداد أبحاثي للترقية، سألت أحد أعضاء لجنة الترقية عن معايير الترقية، فقال: «أن تأتي بمعلومة جديدة». ثم ضرب مثلاً «ببحث» الأستاذ فلان الذي «اكتشف» ترجمة الشاعر الإنجليزي فلان لقصيدة قصيرة عن الفرنسية، وبعد أن حقق الأستاذ المذكور اكتشافه نشره على الملأ (وفي تصوري هذا عمل مهم، إلا أنه مختلف عن عمليات التفسير والتفاعل مع النص). كما أكد الأستاذ عضو اللجنة أهمية المراجع، وضرورة أن أطلع على آخرها. ولم أكن أريد أي مواجهة معه، فقد كان رجلاً طيبًا

www.scantopdf.eu

بالفعل. فاكتفيت بهز رأسي، وهز الرأس يمكن أن يكون علامة القبول أو الرفض أو التأمل. ولكني في واقع الأمر لم أقبل هذه المعايير كمعايير كلية ونهائية، وإن كنت قد استفدت بنصائحه، فحرصت في أبحاثي المقدمة للترقية على أن أعطي وجهة نظري، ثم آتي بآخر المراجع حتى يهدأ روع من سيقومّ عملي. وقد نجحت الحيلة، إذ كان بعض أعضاء اللجنة لا يعلقون على تفسيراتي للنصوص التي أتناولها ويكتفون بالتنويه بعدد المراجع.

قد عبّر النموذج الموضوعي المتلقي المعلوماتي عن نفسه بشكل واضح حين ذهبت إلى إحدى الجامعات العربية. فقد قيل إن الكتب لا تقبل في لجان الترقية. ويبدو أن سمعة الكتب قد انهارت بعد أن تحولت إلى «مذكرات» تحتوي على مجموعة من المعلومات العامة المنقولة من مراجع أجنبية أو عربية. وقد أصابني هذا بشيء من الصدمة، إذ أتذكر في الخمسينيات أن معظم أساتذة الجامعة كان لا يتقدم للترقية لوظيفة أستاذ إلا بعد أن ينتهي من تأليف كتاب، بحُسبان أن الكتاب هو جماع فكره ورؤيته.

ومن الأوهام الأخرى المسيطرة على لجنة الترقية في نفس الجامعة المذكورة، وهم التنويع، أي أن يكتب المتقدم للترقية عن عدة موضوعات، لا موضوع واحد. وقد وجدت نفسي طرفًا في معركة خاصة بترقية أحد الأساتذة تقدم بأبحاثه ليُرقى لوظيفة أستاذ مساعد. وعلى الرغم من أن أبحاثه كانت هي كلها تدور حول الموضوع نفسه، فإنها كانت بالفعل متميزة تنظر للموضوع نفسه ولكن من زوايا مختلفة. ومع هذا قررت لجنة الترقيات في القسم عدم ترقيته بحجة أنه لم يكتب إلا عن موضوع واحد، فقط لا غير. وحيث إنني كنت مندوب القسم على مستوى الكلية، وجدت نفسي أتخذ موقفًا معارضًا لموقف القسم. فبينت للجنة الكلية أن مسألة تعدد الموضوعات (وتنوعها) ليس بالضرورة معيارًا وحيدًا يمكن الاعتماد عليه، إذ إن التعدد والتنوع يمكن أن يكونا مؤشرًا على انعدام وجهة النظر، وعلى المقدرة على حشد المعلومات.

وقد قابلت أحد الأساتذة في هذه الجامعة، وكان يؤمن إيمانًا عميقًا بهذا المعيار المعلوماتي الغريب، ولذا حاول قدر طاقته أن يطبقه بحذافيره، فأخبرني بأنه (والحمد لله) قد انتهى من كتابة دراسة عن المسرحية في القرن السادس عشر وأخرى عن الشعر في القرن السابع عشر وثالثة عن الرواية في القرن التاسع عشر ولم يبق سوى دراسة رابعة عن

www.scantopdf.eu

النظرية النقدية في القرن العشرين. إن هذا الأستاذ/ البقال قد قرر تنويع دراساته (أو بضائعه) بشكل نماذجي ليرضي لجنة الترقية بمعاييرها المعلوماتية.

وقد استشرى المرض المعلوماتي في لجان الترقية في مصر، حتى إنه أصبح على المتقدم للترقية في الوقت الحاضر أن يختار موضوعًا بالقرعة، نعم بالقرعة، ليكتب عنه في غضون مدة قصيرة، دون أي اهتمام بميوله الفكرية أو القضايا والإشكاليات التي يواجهها. فالمهم هو اختبار مقدرته على حشد المعلومات وبسرعة وإثبات أن أحدًا لم يساعده. (أخبرتني إحدى المتقدمات أنه مع وجود الإنترنت أصبحت القضية سهلة للغاية، فالإنترنت هي سيدة المعلومات بلا منازع).

وهذا لا يختلف كثيرًا عما حدث للبروفسير ديفيد كارول حينما حضر إلى مصر، واجتمع ببعض الشابات من أعضاء هيئة التدريس، وفوجئ بأنهن يطلبن منه أن يختار موضوعًا لهن للكتابة عنه. وحاول أن يبيِّن لهن أنه من الضروري أن يخترن الموضوع بأنفسهن (بما يتفق مع اتجاهاتهن وميولهن الفكرية) وأن مهمته تنحصر في أن يساعدهن على صياغة الأسئلة، وفي أن يوجههن نحو المكتبات المتخصصة أو المراجع المهمة.

وقد تسبب نموذج المعلوماتية والموضوعية المتلقية في ظاهرة غريبة الشكل، لم أر مثلها في العالم بأسره. وهو أنه حينما يقرر أحد الأساتذة الكتابة عن موضوع ما، فإنه يخفيه عن زملائه بدلاً من مناقشتهم فيه. والتصور هنا معلوماتي بطبيعة الحال، لأن البحث - حسب تصور هؤلاء - يتكون من حشد المعلومات عن موضوع ما، وبالتالي يمكن أن «يلطشه» أحدهم ويسرع بالكتابة (أي حشد المعلومات) عنه قبل غيره. (كان بعض المعلوماتيين يحذرونني من أنني أصور أجزاء من الموسوعة وأعطيها لبعض الشباب ليستفيد منها في أبحاثه، وأنهم قد ينسبونها إلى أنفسهم. فكنت أرد عليهم بقولي إن الموسوعة تشكل خطابًا جديدًا يعبر بدوره عن وجهة نظر متكاملة، ولذا فعملية السرقة تكاد تكون مستحيلة. ومع هذا لابد من أن أشير لبعض الأساتذة الذين «سرقوا» من مؤلفاتي، ولكن ما سرقوه يظهر بشكل واضح لأن مصطلحي وخطابي مختلفان للغاية. (وقد قام أحدهم بسرقة الجمل ظريف - كما سأبين فيما بعد - ، ولكن درجة عدم فهم الجمل، ومن ثم درجة التشويه الناجمة عن ذلك، كانت عالية إلى درجة أنه أصبح من الصعب أن أشير إلى المسخ الجديد بحُسبانه سرقة للشخصية التي طورتها لقصص أطفالي إذ لم يبق سوى الاسم).

www.scantopdf.eu

وحينما تقدمت زوجتي للترقية لوظيفة أستاذ مساعد، قدمت عدة أبحاث من بينها دراسة كانت قد نشرتها في إحدى الحوليات الصادرة باللغة الإنجليزية عن التحيز في المقررات الدراسية، وكانت دراسة ذات طابع نظري تطبيقي، وقد ترجمتها وتقدمت بها لمؤتمر التحيز وطُبعت في كتاب إشكالية التحيز. وقد أخبرتها أنها أحسن الدراسات لأنها تطرح إشكالية نظرية مهمة ولا تتبع الأسلوب الطفولي الذي يتبعه بعض المتقدمين للترقية (والذي تصر عليه لجان الترقية) من تقسيم أبحاثهم إلى «مشكلة البحث»، «خطوات البحث»، «أسئلة البحث» . . . إلخ. وقد صدر قرار بترقيتها، فقد حصلت على تقديرات مرتفعة في كل الأبحاث، إلا عن بحث واحد، وهو بحثها عن «التحيز في المقررات الدراسية» لأنه لم يأخذ الشكل الطفولي الذي أشرت إليه ولأنه قُدِّم لمؤتمر «غير متخصص»!

إن كلمة «أكاديمي» فقدت معناها، وأصبحت تشير إلى أي شخص عديم الخيال، يُلحق ببحثه قائمة طويلة بالمراجع، ويشرح أطروحته بطريقة مملة، ولا يُبدي أي رأي، ويحدث أصواتًا معرفية. وفي الدراسة التي كتبتها عن جمال حمدان نوهت بهذا العبقري الفلتة، فهو من القليلين الذين أفلتوا من قبضة (أو مستنقع) الموضوعية المتلقية، فبينت أن كتاباته ليست دراسات «أكاديمية» بالمعنى السلبي للكلمة، والتي عرَّفتها بأنها:

«الدراسة التي يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح، ولا تتسم بأي شيء سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعنات علمية موضوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء. والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التي يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أي معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثًا» عن أي شيء) هو زيادة عدد الدراسات التي تضمها السيرة العلمية للأكاديمي صاحب الدراسة، فيتم ترقيته، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية. قد تقوم الدنيا ثم تقعد، وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب. ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التي تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعانًا وتألقًا، إلى أن يُعيَّن رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشيء الأكاديمي، يتحرك في عالم خالٍ من أي هموم

www.scantopdf.eu

إنسانية حقيقية - عالم خال من نبض الحياة: رمادية كالحة هي هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هي شجرة المعرفة الحية المورقة.

«كتيب جمال حمدان اليهود أنثروبولوجيًا ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما دراسة عميقة كتبها مثقف مصري «صاحب موقف»، لا يكتب البتة إلا انطلاقًا من لحظة معاناة وكشف ذات طابع تاريخي. وهو ولا شك يتّبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة، ولكن الآليات تظل مجرد آليات، والوسائل لا تتحول البتة إلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتي به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات. فنقطة البدء هي قلق وجودي عميق أدى إلى ظهور مشروع فكري متكامل، والهدف يظل دائمًا هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل.

«ولذا فكل كتب جمال حمدان هي كتب إشكالية، محاولة للإجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة في مشروع فكري واحد، محوره مصر. فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً للأفكار (مثل عدد لا يُستهان به ممن يسمون بالمفكرين في بلادنا، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة، عادةً من الغرب). صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي [فهي تعبّر عن قلقه وآماله]، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد - رؤية واحدة للكون. أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل أفكارًا متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة. وما يحدث في كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفي الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته، فمهمتهم هي النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الأوربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد، وموضوعية متلقية هي في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية. في هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب، ويختفي المنظور النقدي وتختفي ذاتية الناقل، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنبًا إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهري منها والهامشي. ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيرًا عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذي نبعت منه. ولذا فمثل هذه الدراسات «قد تنقل

www.scantopdf.eu

عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسيًا» (كما يقول جمال حمدان). وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء في شركات نقل الأفكار التي لا تختلف كثيرًا عن شركات نقل المعلومات أو حتى نقل البضائع.

«جمال حمدان لا ينتمي إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التي استشرت تمامًا في صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمي من خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحي للمضمون - استطلاع رأي - أرقام). ولا شك في أن غياب المشروع الحضاري المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل، ويصبح التلقي المهزوم والإذعان (الموضوعي) للأمر الواقع بديلاً لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته.

«إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع. إنها تدور في إطار الموضوعية المتلقية، السلبية. العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم. وهي لا تكترث بالحق أو الحقيقة؛ فهي قد غرقت تمامًا في الحقائق والوقائع والأفكار المتناثرة، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاصين».

ولعل هذه الواقعة تبين كيف أن الموضوعية المتلقية (المنفصلة عن القيمة) لا علاقة لها بالحق والحقيقة، وأنها غارقة تمامًا في الحقائق المادية وأنها قد توصل إلى مواقف كوميدية متطرفة. كان لي صديق أمن أساتذة اللغة العبرية، وجاء يوما لزيارتي لنتحدث معًا في مشروع الموسوعة فاعتذر قائلا: إنه قد عرض عليه وظيفتان سيختار واحدة منهما؛ الأولى هي أستاذ باحث في مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد (وكانت العراق آنذاك من أكثر الدول ثورية ورفضًا لما يسمى بعملية السلام). أما الوظيفة الأخرى فهي مستشار في المركز الثقافي الإسرائيلي في القاهرة! وقد صدمت حينما قال ذلك بهدوء شديد، بل وببرود مخيف؛ إذ يبدو أن هذا الأستاذ الموضوعي قد قارن بين دخله في كلتا الحالتين دون الرجوع إلى أي مرجعيات أخلاقية أو دينية أو قومية فوجدهما متساويتين ومن هنا كانت حيرته. فالمعيار المادي معيار صلب، أما المعايير المعنوية الأخرى فهي معايير رخوة يمكن للإنسان أن يتجاهلها أو يهمشها.

www.scantopdf.eu

إن جوهر البحث والإبداع - في تصوري وتصور كثيرين غيري - هو أن يكتشف الإنسان علاقة بين شيئين أو ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل ويربط بينهما، ثم يجرد بعد عملية الربط هذه نمطًا عامًا (نموذجا تفسيريا) يتجاوز الظاهرتين له مقدرة تفسيرية معقولة، ثم يرى الواقع من جديد في ضوء هذه العلاقة الجديدة. وعملية الربط فعل ذاتي، لأنه نتاج إعمال الفكر، وليس معطى ماديًا يوجد جاهزًا في الواقع، وعملية التجريد عملية إبداعية أكثر ذاتية من عملية الربط. ودائما ما أؤكد لطلبتي أن عمليتي الربط والتجريد لايمكن أن تتما في فراغ، ولا من داخل النص أو الظاهرة وحسب، وإنما يجب أن يكون الدارس على درجة عالية من الثقافة، حتى يمكنه اكتشاف النمو المتكرر، لأنه إن لم تكن الذات المدركة ثرية قادرة على استيعاب تركيبية الواقع، فإنها ستسقط في الانغلاق والتلقي. ولكل هذا، وجدت أنه من الأجدى استبعاد مصطلحي «موضوعي» و«ذاتي» (فهما يفترضان موضوعًا قائمًا في حد ذاته، وذاتًا مستقلة منعزلة لا تتعامل مع الموضوع). وأحللت محلهما مصطلحي «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية»، فهما أكثر دقة في وصفهما لعملية الإدراك والتفسير. فإن كانت الأطروحة التي يأتي بها الدارس تفسِّر عددًا من المعطيات يفوق العدد الذي تفسره الأطروحات السائدة، فهي «أكثر تفسيرية»، وإن كان عددها أقل فهي «أقل تفسيرية». ويتميز هذان المصطلحان بأنهما لا يتجاهلان الواقع بطريقة مغرقة في الذاتية، وإن كانا في الوقت نفسه يؤكدان أهمية العقل ومقدرته على التفاعل مع الموضوع وربط المعطيات المختلفة. كما أن المصطلحين الجديدين أكثر انفتاحًا. فالإنسان يقدم أطروحته لتُختبر على محك الواقع، لا لتُقبل أو تُرفض، وبعد اختبارها إن وجدها الإنسان أكثر تفسيرية أخذ بها، وربما أضاف إليها ليجعل مقدرتها التفسيرية أعلى، أما إذا كانت أقل تفسيرية فإنه يشير إلى نقائصها ويكملها. ولذا أسمي هذا النوع من التفكير «الموضوعية الاجتهادية» (في مقابل الموضوعية المتلقية أو الفوتوغرافية)، وهي ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما يُعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد منها أنماطًا متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل.

وفي محاولتي ترسيخ هذه الرؤى وهذا المنهج في وجدان الطلبة والطالبات، كنت أخبرهم في دروس النقد الأدبي بأن النص (الموضوع) لا ينطق بشيء بمفرده، وأن الناقد (الذات) لا يمكنه أن ينطق بشيء بمفرده، وأن العملية النقدية في جوهرها هي عملية

www.scantopdf.eu

«استنطاق» ؛ فالناقد يقول ما يقول من خلال النص، الذي يكشف عن سره بمقدار ما يستنطقه الناقد. فالنقد الأدبي إذن هو النقطة التي تلتقي فيها الذات (الناقد) بالنص (الموضوع النقدي). وإن البحث عن المعنى الوحيد للنص هو بحث لا طائل من ورائه، وأن تصور أن النص مجرد موضوع يمكن للمرء التقاطه وفك سره (وكأنه شيء محدد) هو تصور مضلل للغاية.

كما كنت أخبرهن بأنه في أثناء كتابة بحث يجب أن يُدرب الباحث نفسه على استبعاد بعض المعلومات (وهو أمر صعب للغاية). ففي أثناء كتابة البحث يتوافر لدى الباحث مجموعة من المعلومات، بعضها مهم للغاية في حد ذاته، لكنه لا علاقة له بموضوع البحث، فإن تم إبقاؤها فإنها في واقع الأمر تضعفه لأن القارئ لن يمكنه متابعة الأطروحة الأساسية. فالقضية هي اختيار المعلومة المناسبة ووضعها في الإطار الكلي لا مجرد ذكرها (يخبرون الطلبة في الثانوية العامة بأن يذكروا كل شيء، وعلى المصحح أن يختار من بينها، ويعطي الدرجة النهائية لأن جميع النقط قد ذكرت!). كما أؤكد لطالباتي ضرورة وجود إشكالية/ تساؤل عند الباحث قبل أن يبدأ بحثه، وإلا وجد نفسه يحشد المعلومات حشداً دون منطق داخلي واضح. وأخيراً أنصح طالباتي بالابتعاد عن منهج السرد التاريخي، فهو يشجع على المعلوماتية إذ يصبح هم الباحث هو حشد المعلومات المرتبة تاريخيًا. وأوصيهن دائمًا بدلاً من ذلك أن يكون البحث من خلال موضوعات وإشكاليات (مثل هذه الرحلة).

وكي أوضح فكرة أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية، كنت أضرب لهن مثلا طريفا حين كنت في إحدى العواصم الأوربية. إذ لاحظت أن الفتيات نحيفات للغاية ويلبسن جونلات قصيرة للغاية، فكنت أخبر الطالبات أنه من الممكن القول إن الفقر قد اجتاح أوربا، وأن الفتيات نحيفات لأنهن لايأكلن بما فيه الكفاية، والجونلات قصيرة لأنهن من الواضح غير قادرات على دفع ثمن جونلات طويلة. هذا النموذج التفسيري يفسر بعض جوانب الواقع دون شك. ولكن ماذا عن الساعة باهظة التكاليف التى ترتديها الفتاة النحيفة؟! وماذا عن الحذاء وحقيبة اليد؟ هنا يسقط هذا النموذج التفسيري لأنه أقل تفسيرية. ونطرح نموذجا آخر هو نموذج الموضة الذى يفرض على الفتيات أن يكن نحيفات ويرتدين الجونلات القصيرة. وسنجد أن هذا النموذج الأخير قادر على تفسير عدد أكبر من العناصر، ومن ثم فهو أكثر تفسيرية.

www.scantopdf.eu

وكان تجاوز الموضوعية المتلقية والرصد المباشر هو ديدني في دراساتي وأبحاثي، بما في ذلك دراساتي في الصهيونية. وقد ذكرت من قبل طريقة تفسير أرقام الهجرة اليهودية. ويمكن أن أذكر هنا واقعة أخرى، وهي تشييد متحف الهولوكوست (المحرقة) في الولايات المتحدة. ساعتها قال البعض إن هذا تعبير عن قوة النفوذ الصهيوني . . . إلخ. ولكن بعد قليل من البحث والتمحيص، اكتشفت أن الدولة الصهيونية لم تكن سعيدة تمامًا بهذا المتحف. فهي تَعُدُّ نفسها مركز اليهود واليهودية، وقد تحولت الهولوكوست إلى معلم أساسي لما يسمَّى «التاريخ الصهيوني»، وقد أسسوا نصب ياد فاشيم في إسرائيل ليكون بمنزلة مزار يتعبد فيه «الشعب» في تاريخه ونفسه، فهو بمنزلة مكان مقدس، بل هو أكثر الأماكن قداسة. فإذا بنى يهود الولايات المتحدة متحفًا للمحرقة، أفليس هذا بمنزلة ازدواج للمركز، وتوزيع للقداسة، وتنافس مع أرض الميعاد؟ ومن هنا كان اعتراض بعض الإسرائيليين على إقامة هذا المتحف. ومثل هذا التركيب (حيث يتعارض الظاهر مع الباطن) لا يمكن للموضوعية المتلقية اكتشافه، فهي تكتفي بالتلقي وبالرصد السطحي السريع.

ويظهر رفض الموضوعية المتلقية في دراستي عن فيلم «قائمة شندلر»، إذ بينت أن هذا الفيلم لا يتبنى الرؤية الصهيونية للمحرقة، التي تذهب إلى أن المحرقة إن هي إلا تعبير عن عداء الأغيار الأزلي لليهود، واستمرار للمذابح المستمرة ضد اليهود عبر التاريخ، وهي مذابح لا تفسير لها سوى كره العالم لليهود، مما يعني ضرورة تأسيس دولة يهودية لهم، وتبني رؤية مغايرة. وقد بيَّنت في **الموسوعة**، ابتداءً، أن بطل الفيلم الذي ينقذ اليهود ليس يهوديًا، وهذا يسقط الثنائية الصهيونية الاختزالية: اليهود ضد الجميع. كما أن الفيلم يبين أن حرق اليهود ليس مجرد هوس نازي، وليس مجرد عداء أزلي من جانب الأغيار، فهو يتم لأسباب عملية نابعة من رؤية نفعية مادية واضحة (ومن هنا التسمية «قائمة شندلر»، فهذا عالم كل شيء فيه محسوب). وبرغم أن نهاية الفيلم الملونة نهاية صهيونية، تدور أحداثها في إسرائيل، فإنها إضافة مقحمة، الهدف منها هو الحصول على أوسكار. وبالفعل حصل سبيلبرج على ما يريد. ولكن إسحق رابين، رئيس وزراء إسرائيل، تنبه إلى المضمون الحقيقي للفيلم، فقال إنه ليس «هولوكوستيًا» بما فيه الكفاية!

وقد تفهم ابناي تجاوز الرصد المباشر. ولذا تخصصت ابنتي في الأدب الإنجليزي ورسالتها للدكتوراه تقدم قراءة جديدة للنصوص التي درستها. أما ابني، فقد تخصص في

www.scantopdf.eu

علم الطبيعة النظرية، وهو تخصص لا يقوم على الملاحظة، وإنما على التفكّر في الظواهر الطبيعية التي لا يمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة. ولعل الواقعة التالية تبين مدى تجاوز ابنيّ للموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية). كان عندنا مرة بواب أميّ تتسم زوجته بالذكاء والنظافة الشديدين، وهما الصفتان اللازمتان للمساعدة في الأعمال المنزلية، كما أنها كانت تجيد القراءة والكتابة. وكان بإمكانها أن تحقق أرباحًا طائلة لو قامت بتنظيف الشقق للسكان، هذا لو توافرت فيها صفة ثالثة وهي الأمانة. ولكنها للأسف كانت لا تكف عن السرقة واختراع القصص الملتوية حتى تسرق شيئًا، ولذا لم يطلب أحد خدماتها. ذات مرة جاءت ابنة البواب من زواج سابق لزيارة أبيها، فاتفقت هذه المرأة معها، وأخذت تكتب رسائل تستعطف فيها الناس لتحصل على صدقاتهم لأن زوجها، أي أبو الصغيرة، عاجز غير قادر على العمل، وكانت تعطي الطفلة نسبتها المئوية، والأب الأمي غير مدرك لما يحدث حوله. ومرة أخرى جاءتني وأخبرتني أن شخصًا ما قد جاء وأعطاها ورقة يخبرها فيها أنها يمكنها أن تحصل على قماش جلباب بالمجان إن هي ذهبت إلى عنوان قريب من منزلها، وادعت أنها هرعت إلى ذلك المنزل. ولكنها حينما عادت اكتشفت - ويالله هول - سرقة أنابيب البوتاجاز! وهكذا لم تكن تكف عن مثل هذه السرقات الصغيرة، ولذا لم يكن أحد يجرؤ على أن يطلبها كي «تنظف» له منزله، لأنها كانت «ستنظفه» على طريقتها. المفارقة الكبرى كانت تكمن في أن ما كانت هذه المرأة تحققه عن طريق السرقات يقل كثيراً عما كان يمكن أن تحققه عن طريق «العمل الشريف». فحرت في أمرها، إلى أن أخبرتني ابنتي نور بأن العمل في تنظيف المنازل لا يتطلب أي إبداع، على عكس عملية السرقة، خاصةً إذا كان على اللص أن يؤلف قصة جديدة كل مرة. والطاقة الإبداعية عند زوجة البواب - حسب تفسير نور - كانت عالية للغاية ولابد أن يتم الإفصاح عنها، ونظراً لعدم وجود أي قنوات شرعية، لم يكن أمامها سوى السرقة. وهذا التفسير ليس تسويغًا لسلوكها الإجرامي وإنما محاولة لتفسيره، وهي محاولة لم تستسلم للرصد المباشر وإنما نفذت إلى البنية الكامنة.

العقل التوليدي

ينطوي نموذج الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية) والمعلوماتية على إنكار لمقدرة العقل على الإبداع والتوليد، فهو يفترض أن عقل الأديب (ومن بعده عقل الدارس) يقف

www.scantopdf.eu

كالفقير أمام عتبات الواقع يلتقط منه الفتات، وليس كالأمير يراه في كليته فيختار منه ويفككه ويركبه كما يشاء، ليصل إلى تصورات «أكثر تفسيرية».

ولذا ارتبط رفضي للموضوعية الفوتوغرافية بتبني نموذج معرفي وتحليلي جديد للعقل بحُسبانه كيانًا توليديًا وليس مجرد وعاء مادي متلق للمعلومات. وفكرة العقل التوليدي فكرة أساسية في المنظومة الإسلامية، فالإنسان يولد على الفطرة، أي عنده مقدرات داخلية على الخير (كما أن هناك ما يدل على أن عنده مقدرات داخلية على الشر). والعقل التوليدي فكرة مركزية في الشعر الرومانتيكي، خاصةً في شعر وليام وردزورث وكوليردج، تعبِّر عن ثورتهم على المادية الآلية التي سادت في القرن الثامن عشر بعد أن هيمن النموذج النيوتوني على الفكر (يقول وليام بليك: «ليحمنا الله من الرؤية البسيطة ومن نوم نيوتن»). وقد درست فلسفة عمانويل كانط الذي يذهب إلى أن العقل ليس مجرد صفحة بيضاء تُطبع عليه المعطيات المادية كأنه سطح من الشمع، وإنما هو كيان مفطور فيه مقولات قَبْلية، أي مقولات توجد قبل التجربة الحسية، ولا تكفي التجربة الحسية وحدها لتفسيرها وتوضيحها، فهي مقولات يفترض الذهن وجودها ويثبت صدقها وكذبها بمعزل عن التجربة (هذا على عكس المعرفة البَعْدية التي تولد من التجربة). ومن الأمثلة على المعرفة القبلية، مقدرة الطفل على أن يولِّد كلمات جديدة من خلال القياس، فيقول «حَجَرات» بدلاً من «أحجار» قياسًا على صيغة الجمع لكلمات أخرى يعرفها (مثل أكلات) مع أنه لم يتعلم قواعد القياس من أحد. هذه المقولات الفطرية القبلية تجعل العقل قادرًا على إعادة صياغة الواقع وترتيبه لا تلقيه بشكل ببغائي. وقد قرأت بعض أعمال كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss ومحاولته في التحليل البنيوي الذي يربط بين كل عناصر الواقع. وليفي شتراوس يذهب إلى أن العقل يحوي كل الأبنية التي تبدعها يد الإنسان، وأن دراسة هذه الأبنية هي في واقع الأمر دراسة لبنية العقل الإنساني نفسه. ومن ثم فهو يرى أن ثمة تماثلاً (بالإنجليزية: هومولوجي homology) بين كل الأبنية الفكرية الإنسانية من جهة وبين عقل الإنسان من جهة أخرى. كما قرأت بعض أعمال العالم اللغوي الأمريكي نعوم تشومسكي Naom Chomsky وعالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget، فأدركت تأكيدهما على مقدرات العقل التوليدية. كما أن أي إنسان ثوري لا يمكن إلا أن يؤمن بالعقل التوليدي القادر على تجاوز الواقع المادي القائم.

www.scantopdf.eu

وكنت أحاول أن أنقل لطلبتي وطالباتي فكرة العقل التوليدي ومقدرته على الإبداع (في مقابل العقل السلبي الفوتوغرافي المتلقي) بطريقة درامية. ففي بداية محاضرات النقد الأدبي، كنت أقول لهم (مازحًا بطبيعة الحال) إنهم لو قرأوا أعمال أرسطو بعناية للاحظوا مدى تأثره بأفكاري. وبهذه الطريقة كنت أحاول أن أبين لهم أنني الأستاذ المصري العربي المسلم من دمنهور يمكن أن أصل إلى أفكار ربما لا تقل في عظمتها أو روعتها عن أفكار أرسطو. وغني عن القول أن هذه مبالغة، ولكنها مبالغة كان الهدف منها إيقاظهم ليتعرفوا على إمكانياتهم الداخلية، ولا يخافوا من الإبداع.

وبطبيعة الحال لم أكن ألجأ في محاضراتي إلى الإملاء مطلقًا، وكنت أخبر الطلبة بأن ما أقوله اليوم قد يختلف عما قلته بالأمس، فأنا أتغيَّر وعقلي يولِّد من الأفكار ما قد يكون متنوعًا بسبب تنوع تجاربي الحياتية والوجودية. وأشير دائمًا إلى تجربتي الدرامية مع قصيدة مارفل «إلى سيدتي المتمنعة» (التي أشرت لها من قبل). كما كانت محاضراتي تأخذ شكل أسئلة لتوليد الإجابات من داخل الطلبة ليكتشفوا إمكاناتهم. (وهذه الطريقة ممكنة مع أعداد معقولة من الطلبة، أما مع الجيوش الجرارة فلا يوجد بديل للمحاضرات ثم الإملاء فالكتاب الجامعي، التي تتبعها مفاوضات ودية أو ساخنة قبل الامتحانات بين الأستاذ والطلبة لمعرفة المقرر وحذف بعض الأبواب حتى ينكمش المقرر).

ويبدو وأنني بدأت أتحسس طريقي نحو مفهوم العقل التوليدي، حتى قبل أن أدركه بشكل نظري ومنهجي. أذكر أنني كنت في جامعة كولومبيا أدرس الأدب الرومانتيكي الإنجليزي مع أحد كبار الأساتذة، فيما يسمى البروسيمنار pro -seminar، أي قاعة البحث الرئيسية، وهي تضم مجموعة من الدارسين الذين يرغبون في التخصص في هذا الفرع بالذات. ومن المعروف أن الشعر الرومانتيكي ملىء بوصف الجبال. وسأل الأستاذ سؤالا طريفًا إذ قال: ماذا كان الشعراء الإنجليز سيفعلون بلا جبال؟ فكان معظم الطلبة يجيبون بأنه من المستحيل تخيل الشعر الرومانسي الإنجليزي بدون جبال، وأن الجبال مكون أساسي في هذا الشعر. فرفعت يدي وطلبت الكلمة وكانت هذه هي أول مرة أتحدث فيها في هذه البروسيمنار، فقلت إن الجبال ليست لها أهمية في حد ذاتها، فالشعر الرومانتيكي لا يتناول عالم الطبيعة في حد ذاتها، وإنما بمقدار ما هي مادة خام يصوغها عقل الإنسان حسب رؤيته، ولذا لو لم يكن هناك جبال في إنجلترا، لاخترعوا جبالاً أو شيئًا

www.scantopdf.eu

يشبه الجبال أو بديلا لها. فنظر لى الأستاذ نظرة اندهاش وغيظ، لأننى قوضت رؤيته السطحية.

وكان هذا الأستاذ نفسه مغرمًا بقصيدة "قوبلاى خان" للشاعر كوليردج، وهى قصيدة عن سلطان شرقى شيد قبة تجمع بين كل التناقضات فهى مثلا تحتوى على حديقة وغابة وشموس وكهوف مثل الثلج، وهى تتسم بالهدوء الشديد ولكن تنبجس فيها نافورة. وكان الأستاذ يرى أن كل قصائد كوليردج هى تنويعات على هذه القصيدة، وكان يكتب كتابًا هذا موضوعه. ولذا كان يبحث مثلا عن النوافير فى كل قصائد كوليردج الأمر الذى كان مبعث ملل لجميع الدارسين. فأشرت له أن جوهر النافورة هو الاندفاع إلى أعلى، فهى حركة من الأرض إلى السماء، وهذا ما يجب أن نبحث عنه، ولذا فالأشجار الباسقة التى تعانق السحاب أو الطيور التى تنطلق من الأرض إلى الأفق هى كلها تنويعات على النافورة، ثم فعلت الشىء نفسه مع كل مفردات القصيدة الأخرى. وهنا اضطر الأستاذ للاعتراف بمقدرتى على التجريد والتحليل وتجاوز السطح المباشر. ولا أدرى ماذا فعل بهذه الملاحظات وهل أفاد منها فى كتابه أم أنه رمى بها عرض الحائط، فأنا لم أقرأ كتابه، خاصة أنه لم يجدد له العقد فى جامعة كولومبيا واضطر لتركها، والكتاب نفسه إذا كان قد نشر لم يحرز أى ذيوع.

وإنكار مقدرة العقل التوليدية (وهو إنكار مرتبط تمام الارتباط بالموضوعية المتلقية والمعلوماتية)، يتبدى بشكل واضح في ظاهرة مرضية أكاديمية أخرى هي دراسة قضية التأثير والتأثر، وهي دراسة مريحة (تمامًا مثل النماذج الفلسفية المادية) لا تتطلب اجتهادًا أو إبداعًا. فهي تفترض أن مواطن الشبه بين أديب وآخر ليست بالضرورة نتيجة لإنسانيتهما المشتركة، ولا لمقدرة العقل الإنساني التوليدية، وتماثل العقول الإنسانية، ولا لانتشار مناخ ثقافي معيَّن يؤدي إلى نفس النتائج في مجتمعات مختلفة. فالأثر - حسب هذا التصور - هو نتيجة انتقال شيء مادي ومحدد ومحسوس (يأخذ شكل صورة أو عبارة أو كلمة أو كلمتين) وينتقل من خلال قنوات مادية محددة: قراءة أديب ما لأعمال أديب آخر، بحيث يترك هذا الشيء المحسوس، أعمال الأديب الثاني المؤثَّر، «أثره» على الأديب الأول المتأثر. وهذا الموقف هو نتيجة التبني الواعي أو غير الواعي لمفهوم العقل الإنساني كصفحة بيضاء متلقية، الذي يستند بدوره إلى مفهوم وحدة (أو واحدية)

www.scantopdf.eu

العلوم، أي الإيمان بأن العلوم الإنسانية لا تختلف جوهريًا عن العلوم الطبيعية، لأن الظاهرة الإنسانية في جوهرها لا تختلف عن الظاهرة الطبيعية المادية.

ودراسة الأثر - حسب هذا المنهج الموضوعي المتلقي - تأخذ شكل البحث عن الصور أو العبارات أو الكلمات (بل أحيانًا الأفكار) المحددة التي «أخذها» الأديب المتأثر من الأديب المؤثر، وعلى الباحث أن يُبيِّن بشكل موضوعي «القنوات» الفعلية والمادية التي انتقل من خلالها الأثر. وعلى من يقوم بدراسة التأثير في هذا الإطار أن يأتي بالقرائن المادية الموضوعية والملموسة على صدق أطروحته وأن يتحول من محلل أدبي إلى مخبر بوليسي!

وكنت قد بدأت حياتي العلمية بدراسة من هذا النوع، إذ قضيت - كما أسلفت - ثلاثة أعوام أكتب رسالة للماجستير عنوانها «أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والشعر الرمزي الفرنسي (وبخاصة تشارلز بودلير Charles Baudelaire) على شعر إبراهيم ناجي». وكان المفروض أن تكون المسألة في غاية البساطة لأن الشاعر إبراهيم ناجي كان قد قام بترجمة ديوان أزهار الشر إلى العربية (عن الإنجليزية). ولكن حينما بدأت الدراسة وجدت أن «الأثر» موجود وبكثرة، ولكنه تافه سطحي، مجرد أصداء لفظية، لم يغيِّر من وجدان الشاعر ولا رؤيته. بل وجدت أن «تحوير» ناجي لبودلير و«فشله» في فهم الشاعر الفرنسي (بسبب تراثه الفكري والأدبي) أهم من تلك اللحظات التي تأثر به فيها بشكل مباشر. أي أنني وجدت الكثير من القرائن الموضوعية الملموسة على تأثر ناجي ببودلير، ولكنني أعلنت أن التوقف عند هذا المستوى التحليلي فيه تسطيح واختزال للقضية، وأنه لابد من التوصل إلى مستوى أعمق عن طريق التحليل والتفكيك والتركيب وأخذ مقدرة الشاعر التوليدية في الحُسبان، **والتعامل** مع الوجدان والتراث واللغة بتقدير أنها عناصر مركبة لا يمكن للأديب المتأثر إدراك أعمال الأديب المؤثر إلا من خلالها، ولذا فهو «يشوِّه» و«يحوِّر» حسبما يمليه حدود وجدانه وإدراكه ورؤيته ولغته. أي أنني منذ البداية أعلنت أن علاقة الأديب المؤثر بالأديب المتأثر، شأنها شأن علاقة العقل بالواقع المادي، ليست مباشرة ولا بسيطة، وأن تطبيق النماذج المادية الاختزالية المستقاة من العلوم الطبيعية على الظواهر الإنسانية (أثر أديب على آخر) أمر سهل لا يأتي بالمعرفة ولا بالحكمة، وينتهي بالباحث إلى أن يكرر نفسه، وأن يَسقط في التعميمات المجردة التي لا تقول شيئًا، والتي تُسقط خصوصية الظواهر ومنحنياتها الخاصة، وأن يراكم المعلومات المادية الصلبة التي لا

www.scantopdf.eu

تثير أي قضية، ولا تحل أي إشكالية، لأنها لم تصل إلى أي أعماق واكتفت بملامسة السطح. وقد تكرر الشيء نفسه في رسالتي للدكتوراه - كما سأبين فيما بعد - التي بدأت كرسالة تقليدية في دراسة أثر شاعر إنجليزي على شاعر أمريكي، ولكنها انتهت بتأكيد تفاهة الأثر وعمق الاختلاف الناجم عن اختلاف الوجدان والرؤية. وهذه مسألة لها دلالتها من منظور هذه السيرة غير الذاتية غير الموضوعية - فكأنني كنت أبدأ في عالم المادة المصمت، ولكن كنت أنتهي دائمًا في عالم الإنسان المبدع.

وفي دراستي عن جمال حمدان درست قضية «الأثر» مرة أخرى، فأشرت إلى أنه حينما كنت أكتب **موسوعة ١٩٧٥** قرأت كتابه اليهود أنثروبولوجيًا. ولكني حين قرأته كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني شأن أي باحث، ولكن يبدو أيضًا أنني استوعبت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تمامًا دون أن أدري. ولذا حينما تأملت في علاقتي بجمال حمدان «هالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره. لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع، فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقي ما هو أهم، بقي فكره ورؤيته ومنهجه. فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي. ومن أهم ما تعلمته منه، الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام، ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة، وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة. ولكن أهم ما تعلمته منه، وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د. إيميل جورج - د. نور شريف - د. ديفيد وايمر) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها. لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة، وكيف نجرد الحقيقة من الحقائق. ولا أدري هل تعلمت منه أيضًا شيئًا من الصلابة والقدرة على المقاومة ؟

«أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أُهملت أهمية هذا النوع من التأثر. إن مجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها، ولذا

www.scantopdf.eu

فحينما يُدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون دائمًا عن بضع جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر من الكاتب المؤثِّر . . وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف بها لأنها غير موجودة من منظور كمي معلوماتي .

«كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى، وهي : لم لمْ يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري ؟ يمكنني القول إن النموذج المعلوماتي التراكمي سيطر تمامًا وحوَّل كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية، يتناولها بنهم الكُتَّاب المعلوماتيون . وأعتقد أن معظم ما يُكتب هذه الأيام يُكتب صدوراً عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !» .

الخريطة الإدراكية

يتصور البعض أن ما يقوله أى إنسان هو تعبير دقيق عن موقفه الذى هو بدوره انعكاس مباشر لوضعه الطبقي أو لبيئته أو لظروفه . وهذا التصور مرتبط تمام الارتباط بمفهوم العقل السلبي والموضوعية الفوتوغرافية المتلقيه . ومثل هذا التصور يتجاهل ما أسميه بالخريطة الإدراكية . فما هى الخريطة الإدراكية؟

على عكس ما يتصور البعض لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسي مادي مباشر، إلا في حالات نادرة، تتسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب . فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجسمانية)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا . فعقله ليس مجرد مخ مادي : صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل له مقدرة توليدية، كما أنه مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستوع ثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعى .

www.scantopdf.eu

لكل هذا حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر (مثير مادى تعقبه مباشرة استجابة) وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته، ومن خلال ما يسقطه على الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعان، أو رموز وذكريات، وأطماع وأحقاد، ونوايا خيّرة وشريرة، ومن خلال مجموعة من المنظومات الأخلاقية والرمزية والأيديولوجية.

وبسبب تركيبية الإنسان هذه، ونظرا لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه له نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقًا، أى المقولات والصور الإدراكية التى يدرك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء. هذه المقولات والصور تشكل خريطة يحملها الإنسان فى عقله ويتصور أن عناصرها وعلاقات هذه العناصر بعضها ببعض تشكل عناصر الواقع وعناصره، وهذه هى الخريطة الإدراكية. وهذه الخرائط الإدراكية التى يحملها الإنسان فى عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه فى هذا الواقع الخام، فهى تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها مهمة ومركزية.

ولأضرب مثلا طريفًا على الخريطة الإدراكية، وهو ما يروى عن مارى أنطوانيت (ملكة فرنسا قبل الثورة، ابنة الأسرة المالكة فى النمسا والتى كانت تعيش عيشة أرستقراطية مرفهه منعزلة تمامًا عن العالم الخارجى). قيل أن بعض الحراس وجدوا فلاحا مغمى عليه من فرط الجوع، فأتوا به إليها. فأشفقت عليه وقالت له: «يا سيدى، يجب ألا تتبع هذا الرجيم القاسى». وفى رواية أخرى أنهم أخبروها أن الفلاح لم يجد خبزًا ليأكله مدة أسبوع، فقالت مستنكرة: «لماذا لم تأكل جاتوه؟» ظاهرة الفقر والجوع ليست جزءًا من مخزونها الإدراكى، ولذا فهى لم تستطع إدراكها. فنزعت ظاهرة الجوع من سياقها الحقيقى (الفقر) وربطتها بالأسباب التى تعرفها (الرجيم- الجاتوه بدلا من الخبز)، أى أنها فرضت مخزونها الإدراكى على ما رأته بعيونها (الموضوعية المادية)، فخريطتها الإدراكية حددت مجال الرؤية.

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعيته، وموضوعيته ولا شخصيته وعموميته، (خلقه الله خارج

www.scantopdf.eu

وعينا وإدراكنا وإرادتنا)، وهو ولا شك له أثر في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة تتفاوت في مقدار عمقها من إنسان إلى آخر ومن لحظة زمنية إلى أخرى. (وقد تم القبض على مارى أنطوانيت وإعدامها على يد الجوعى، ولا شك أن خريطتها الإدراكية تغيرت تماماً عند هذه اللحظة).

والخريطة الإدراكية في معظم الأحيان غير واعية، يحملها الإنسان في عقله وهو يرى أنها أكثر الأشياء منطقية وطبيعية. فالإنسان العنصرى لا يرى إلا مساوئ الآخر وفضائل قومه، والجندى البريطانى الذى كانوا يرسلون به إلى أحراش أفريقيا ويخبرونه أنه يحمل عبء الرجل الأبيض، وأنه لم يذهب إلى هناك للسلب والنهب والاستيلاء على الأراضى وطرد سكانها واستغلالهم وإنما إلى نشر الحضارة فى ربوع القارة السوداء وتهذيب سكانها البرابرة الهمجيين، الذين لا يستحقون الحياة. فكان يستبطن الخريطة الإدراكية دون أن يدرى ويقوم بذبح السكان الأصليين لأنه يحمل لواء الحضارة المتفوقة. والصهاينة لا يشكلون أي استثناء. ولذا حينما ندرس سلوكهم لا بد وأن نذكر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس استجابتهم المباشرة للعناصر والملابسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما رؤيتهم وإدراكهم لها.

وقد أدرك الصهاينة أهمية الخريطة الإدراكية فى تشكيل الرأى العام، وفى تحريك الجماهير، وأنا أذهب إلى أن الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية، وإنما دولة استعمارية استيطانية إحلالية تؤدى وظيفتين: تخليص أوروبا من اليهود ونقلهم إلى فلسطين ليشكلوا قاعدة للاستعمار الغربى، أى أن المشروع الصهيونى حول يهود أوروبا إلى مجرد أداة ليحقق هدف استراتيجى. ولكن من الصعب أن تقنع أى إنسان بأن يتحول إلى مجرد أداة، ولذا لابد من تغيير خريطته الإدراكية حتى يمكنه أن يتحرك بحماس ويحمل السلاح دفاعا عما يتصوره وعما استبطنه. ولذا تحركت القيادة الصهيونية على مستويين: أولا أكدوا أن اليهود كتلة بشرية قومية متماسكة لها تاريخها الخاص وخصائصها الفريدة، ولها حق مطلق فى فلسطين فهى وطنهم القومى، ومن ثم فهم حينما يذهبون إلى فلسطين فهم «عائدون» إلى فلسطين (وليسوا محتلون أو مستعمرون)، وعودتهم تتم بناء على الوعد الإلهى، وليس بناء على وعد بلفور، وأن فلسطين هى فى واقع الأمر إرتس يسرائيل. وأخذ المتحدثون الصهاينة (ومعظمهم ملاحدة) يتحدثون عن التوراة والتلمود، واتخذت الدولة الصهيونية بعض الرموز الدينية، حتى تصور الكثيرون أنها بالفعل دولة يهودية،

www.scantopdf.eu

وبدأوا يدركوها على هذا النحو، وبدأوا يدركوا ما تقوم به من بطش ومذابح على أساس هذا الإدراك. وفى هذا الإطار تصبح المقاومة الفلسطينية مسألة غير مشروعة وغير مفهومة، بل وتصبح إرهابًا، والبطش الصهيونى يصبح دفاعا مشروعًا عن النفس أو عن أرض الأجداد أو عن الهوية اليهودية للدولة.

وأسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان اهتزاز خريطته الإدراكية، فحينما يتحدى الواقع هذه الخريطة فإن أساس الرؤية وطريقة الإدراك ذاتها تهتز فتميد الأرض من تحت قدميه فينفعل ويهيج. وهذا ما حدث للمستوطنين الصهاينة، فخريطتهم الإدراكية كان محورها وأساسها أن فلسطين أرض بلا شعب، أو على الأقل شعب يشبه الهنود الحمر يمكن القضاء عليه إما عن طريق الإبادة وإما عن طريق النقل أو المحاصرة أو التجاهل. وقبل اندلاع الانتفاضة الأخيرة أصدر المجلس الإقليمى لمستوطنات غور الأردن الاستعمارية، خريطة سياحية لا يظهر عليها أى قرى أو مدن عربية، كأنها قد أزيلت، أو كأنها لم توجد أصلا، أى أنها أرض بلا شعب! ولكن ما حدث هو العكس، إذ ظهر أن فلسطين أرض عليها شعب، وهو شعب عريق جزء من تشكيل حضارى قديم ومركب، وهو يتزايد كمًا وكيفًا بطريقة مزعجة. فاهتزت الخريطة الإدراكية تمامًا وبدأت العصبية تظهر فيما أسميه المرحلة الشارونية، وهو تصور المستوطنين أنه يمكن تغيير الواقع بالقوة حتى يتسق مع خريطتهم الإدراكية، ولكن الواقع يتحدى بشكل مستمر الخريطة الإدراكية الأسطورية الصهيونية، فالانتفاضة مستمرة ومقاومة أصحاب الأرض تتصاعد، والبطش الصهيونى يتزايد.

والخريطة الإدراكية ليست أمرًا حتميًا إذ يمكن تغييرها، فقطاعات لا بأس بها من الجماهير الإسرائيلية بدأت تدرك عبث محاولة فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع الفلسطينى. ومن أهم الأمثلة على إمكانية تحرر الإنسان من خريطته الإدراكية القاصرة ما حدث للمفكر الصهيونى نيثان بير نباوم الذى قام بتأسيس الحركة الصهيونية، بل وقام بنحت كلمة «صهيونية» ذاتها (فهى لم تكن موجودة فى أى معجم سياسى أو لغوى). واشترك فى المؤتمر الصهيونى الأول، ولكنه تدريجيًا اكتشف حقيقة الصهيونية بأنها حركة ستقوض الانتماءات الحقيقية ليهود العالم، فترك الحركة الصهيونية وانضم لدعاة اليديشية، لغة يهود شرق أوروبا، والذين كانوا يطالبون بالحفاظ على الهوية اليهودية الشرق أوروبية والتى يمكن أن تتحقق فى وطنها روسيا وبولندا (وهذا يختلف عن نقطة

www.scantopdf.eu

الانطلاق الصهيونية، التى ترى أن ثمة هوية يهودية عالمية، لا بد وأن تتحقق فى أرض الميعاد). ثم تغيرت خريطته الإدراكية بطريقة أعمق إذ وجد أن العودة إلى اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية هو الحل الوحيد، وأصبح من أعدى أعداء الصهيونية (فاليهودية الحاخامية قبل أن يتم صهينتها كانت تحرم العودة إلى فلسطين وتعتبره خطيئة كبرى). وقد عاش بيرنباوم إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، ورأى الكارثة وهى تقترب وأدرك أن الحضارة الغربية الحديثة مدمرة، فاقترح أن يوطن أعضاء الجماعات اليهودية فى أوروبا فى أماكن زراعية بين البلدان المختلفة، أى أنه أعطى ظهره تمامًا للتاريخ، بسبب إحساسه باقتراب الكارثة.

وأعتقد أن حكم محكمة العدل الدولية فى لاهاى يمكن أن يشكل بداية لتغيير الخريطة الإدراكية فى العالم الغربى، فهو يعيد الأمور إلى نصابها، ويبين هوية الدولة الصهيونية بوصفها دولة محتلة (وليس بوصفها دولة يهودية)، ومن ثم تتساقط الادعاءات. وهذا ما أدركه كثير من المعلقين الإسرائيليين أنفسهم، فهم بعد أن استنكروا هذا الحكم واتهموه بمعاداة السامية، وأنه تعبير عن كره الأغيار (أى غير اليهود) لليهود، إلى آخر هذا المخزون من السباب في خريطتهم الإدراكية، بدأوا يهمسون أن «الكراهية لإسرائيل تتزايد وتخترق الحدود، وأن قرار المحكمة الدولية فى لاهاى يرفرف كراية حمراء فوق الجدار (**معاريف** يولية/ تموز ٢٠٠٤). كما أشار بعضهم إلى أن القرار سيضفى شرعية على عمليات المقاومة الفلسطينية (على حد قول ناحوم بارنيع فى **يديعوت أحرونوت** ١١ يولية تموز ٢٠٠٤)، وهو بذلك يمثل انتصاراً للفلسطينيين، «وربما كان النجاح الأكبر لهم منذ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٥، والذى وسم الصهيونية بالعنصرية». ثم يؤكد الكاتب شيئًا مهمًا للغاية، «إذ يقول إن القرار يعنى إعادة تصنيف الدولة الصهيونية، أى تغيير الخريطة الإدراكية بخصوصها «بعد سبعة وثلاثين عاما من الاحتلال، تتحول إسرائيل فى نظر قسم كبير من العالم إلى دولة منبوذة، إنها ليست دولة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا ولكنها بالتأكيد من العائلة نفسها». بل إن ألوف بن إلى يؤكد أنها قد تلاقي مصير «جنوب إفريقيا» (**هآرتس** ١١ يولية/ تموز ٢٠٠٤)

وأعتقد أنه قد حان الوقت أن يتوجه الإعلام العربى لهذه القضية، بحيث يحاول أن يؤثر فى الخريطة الإدراكية للشعوب الغربية، من خلال ما أسميه الحوار المسلح، أى المقاومة المسلحة المستمرة، الذى يصاحبه إعلام قوي يحاول أن يبين حقيقة الصهاينة فى

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

المنطقة بوصفهم جيبًا استعماريًا استيطانيًا إحلاليًا يمثل الاستعمار الغربى ويخدم مصالحه.

وأعتقد أن الفشل الاستخباراتى فى كل من الولايات المتحدة وإنجلترا وشنهم حربا على العراق بسبب أسلحة الدمار الشامل وعلاقة الرئيس صدام حسين بالقاعدة استنادًا إلى أدلة ثبت زيفها فيما بعد هو فى واقع الأمر قصور فى الخريطة الإدراكية. ولتوضيح هذه النقطة فلأروى هذه القصة التى أخبرنى بها صديق أمريكى كان يعمل معنا فى السعودية فى جامعة الرياض، وكان يعمل من قبل فى إيران. وحكى لى القصة الآتية: كان يعمل استاذًا للغة الإنجليزية فى طهران أثناء حكم الشاه، وأخبره طلبته أن مظاهرة كبرى ستقع فى اليوم التالى وأكدوا له ذلك. وتصادف أن صديقى هذا كان يعرف رئيس المخابرات الأمريكية فى طهران، الذى كان مشغولا تمامًا آنذاك بنقل شقته من الدور الأرضى إلى الدور العلوى فى العمارة نفسها، حيث يوجد "روف جاردن" جميل، فسأله عن مظاهرة الغد، وهل من المستحسن أن يمكث فى بيته أم يذهب إلى الجامعة؟ فأكد له أن مثل هذه المظاهرة لن تقع، فشرطة الشاه مسيطرة تمامًا على الموقف. فاطمأن صديقى إلى ما قاله رئيس المخابرات بجلالة قدره، وذهب إلى الجامعة فى اليوم التالى وانتهت القصة بقول صديقى: «وعدت إلى منزلى زاحفًا على بطنى لأن المظاهرة قد وقعت واصطدمت الشرطة بالطلبة». وتعد هذه المظاهرة الضخمة هى بداية نهاية الشاه. وحينما سقط الشاه بحث الأمر فى الولايات المتحدة باعتباره فشل استخباراتى، إذ يبدو أن المخابرات الأمريكية لم تنبه الإدارة الأمريكية إلى مجرد احتمال سقوط الشاه. وقد احتج أعضاء المخابرات بقولهم إنهم كانوا فى إيران لخدمة نظام الشاه وليس التجسس عليه، ومن ثم استوعبوا تمامًا فى النظام الإمبراطورى! وما يقولونه هو أنه تم تغيير خريطتهم الإدراكية، حيث أصبح هدفهم هو الحفاظ على نظام الشاه بأى ثمن، وليس رصده، ولذا استبعدوا كل الأدلة والبراهين التى تشير إلى احتمال سقوطه.

وأعتقد أن شيئًا مماثلا حدث فى غزو العراق. فالخريطة الإدراكية الإمبريالية الأمريكية كانت تنطلق من ضرورة غزو العراق (جاء فى أحد المؤلفات أن جورج بوش قال قبل ١١ سبتمبر إننا سنغزو أفغانستان ثم العراق we will do Afghanistan first, then we will do Iraq. ويفسر هذا بأنه مع تراجع الولايات المتحدة اقتصاديًا وتعاظم قوة آسيا الاقتصادية (خاصة الصين) أرادت الإدارة الأمريكية أن تقوى موقفها التفاوضى فى العالم بالهيمنة على منابع البترول، سواء فى بحر قزوين أم فى العالم العربى. كما أن برنارد

www.scantopdf.eu

لويس، المستشرق الأمريكى الصهيونى، زين لبوش مسألة غزو العراق بقوله إن القضاء على الراديكالية الإسلامية والعربية يمكن تحقيقه بغزو دولة عربية كبرى وإخضاعها تمامًا، وأنه لو تحقق هذا فإن الدومينو العربى الإسلامى سيسقط. هذه الخريطة الإدراكية استوعبها أعضاء المخابرات الأمريكية وبدأوا يجمعوا الأدلة التى تدل على وجود أسلحة دمار، أدلة واهية (معظمها ظهر فيما بعد أنها شهادات من بعض أعداء نظام صدام حسين، وكثير منهم كان من المرتزقة) واستبعدوا، بوعى أو بدون وعى، كل الأدلة التى تناقض إطارهم الإدراكى. وقد صدقت الإدارة الأمريكية هذه الأدلة لأنها كانت تريد تصديقها، فخريطتها الإدراكية كانت تتجه هذا الاتجاه. فرغم أن نتيجة التحقيق الذى قام به الكونجرس قد برأ إدارة بوش من تهمة التقصير (تمامًا كما برأ التحقيق فى بريطانيا بلير من تهمة التزييف المتعمد)، إلا أننى أعتقد أن الفشل الاستخباراتى كان سببه هو الإطار الإدراكى العام (ضرورة غزو العراق)، الذى خلق حاله من القبول للأدلة الواهية، وعدم النظر فيها نظرة نقدية.

وتظهر قضية الخريطة الإدراكية أيضا فى القرار الأمريكى الخاص بزج القوات الأمريكية في المستنقع العراقي. فلم يدرك أصحاب هذا القرار أن الإعلام الأمريكى قام بتفريغ الإنسان الأمريكى ومن ثم الجنود الأمريكيين تماما من كل القيم المثالية والنضالية، وذلك من خلال التأكيد على تحقيق الذات والتوجه الشديد نحو اللذة، كما تم التأكيد على أن كل الأمور نسبية، أى متساوية، ولا يوجد معيار للحكم، الأمر الذى يعنى تقويض الإيمان بأى شىء، بل وتقويض الذات بحيث تصبح مفتقدة للهدف والغاية، ولأى شكل من أشكال المثاليات المتجاوزة للذات الضيقة. كل هذا حوّل الإنسان الأمريكى إلى كائن اقتصادى استهلاكى على درجة عالية من الكفاءة فى الاستهلاك، والإنسان الاستهلاكى ليس له هدف محدد فهو يرى أن الخلاص يأتى من خلال تحقيق الذات الذى يتجسد فى معدلات الاستهلاك، كما أنه إنسان يبحث دائمًا عن الإشباع الفورى، ومن ثم فدرجة تحمله (عتبة التحمل كما تسمى فى علم النفس) ضيقة للغاية.

وقد نتج عن عملية التفريغ هذه أن الإنسان الأمريكى انغلق على نفسه وأصبح غير مهتم بالسياسة الخارجية وشئون العالم، طالما أن هناك دجاجة على المائدة As long as there is a chicken on the table، فهو يترك مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية، ويركز هو على أمور معاشه مثل نوعية المدارس، والمطافئ، والرعاية

Produced with Scantopdf
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الصحية، والحالة الاقتصادية، كما تمسه هو شخصيًا. فإرسال مثل هذا الشخص إلى بلد خارجية، استنادًا إلى رؤية تتعلق بالسياسة الخارجية لا يفهمها ولا يكترث بها، ولدوافع تم إخفائها عنه، وهو على أية حال متمركز حول ذاته، باحث عما يشبع نهمه الاستهلاكي، فإنه لن يقاتل بضراوة ولن يتحمل أى ألم؛ فالإنسان لا يتحمل الألم إلا من خلال إيمانه بشيء ما يتجاوز ذاته الضيقة.

كما أن صانع القرار الأمريكى لم يدرك أيضًا خريطة العراقيين الإدراكية وحولهم إلى مجرد حيوانات اقتصادية مادية سترحب بالمحتل، ولم يدرك قيمًا معنوية (غير مادية) تتجاوز الذات الضيقة، تحرك الإنسان العراقى مثل رفض الظلم والاحتلال وإدراكهم العميق لطبيعة المشروع الأمريكى، وإيمانهم بالله الذى يملأهم ثقة بأنفسهم وبمقدرتهم على المقاومة أمام الآلة العسكرية الضخمة.

بعد قصور الخريطة الإدراكية الأمريكية عن الإحاطة بالأبعاد الحقيقة للفاعل الإنسانى، الأمريكى والعراقى، ألقت الإدارة الأمريكية بالجنود الامريكيين فى أتون المعركة، وفوجئت بعنف المقاومة، وفوجئت أيضا بضعف تحمل الجنود الأمريكيين، وضعف تحمل الجمهور الأمريكى. حينما وصل عدد القتلى من الجنود الأمريكيين إلى حوالى ٨٠٠ قتيلا وهو العدد نفسه الذى قتل فى معركة الغزو، بدأ القلق يساور الشعب الأمريكى. فكنت أضحك وأقول لهم أن من يريد أن يبنى إمبراطورية تنهب الشعوب وتأتى له بخيرات البلاد الأخرى عليه أن يضحى بالدم. وكنت أذكرهم أن قلق الشعب الأمريكى فى حرب فيتنام لم يبدأ إلا بعد سقوط ٢٠ ألف من الجنود، فكانوا يحتارون من ملاحظاتى هذه، فهم لا يعرفون أن الخريطة الإدراكية الأمريكية مع تصاعد التوجه نحو اللذة ومع تصاعد معدلات الاستهلاك قد تغيرت تمامًا، إذ قوضت كل مثاليات الإنسان الأمريكى بما فى ذلك إيمانه بالوطن وبالإمبراطورية، وبضرورة الدفاع عنها بضراوة.

ومن أطرف الأمثلة على الخريطة الإدراكية غير الواعية قصة هذا الأمريكى الأبيض المسكين الذى كان يبيع الكابوتشينو فى الفندق الذى نزلنا فيه فى نيويورك إبان أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ فقد كنت أود مواساته لأن حالته كانت محزنة للغاية. فقلت له (منافقًا) أن كل الناس تحب الشعب الأمريكى ويراودهم الحلم الأمريكى، فرد علىَّ قائلا: «الحلم الأمريكى: الثروة والزوجة الشقراء والطفلان والبيت الكبير والحديقة الضخمة والسيارتان

www.scantopdf.eu

الكبيرتان وعدد من الكلاب» قلت: «نعم»، قال: «سأحكي لك قصة عن الحلم الأمريكي الآن. كنت أبيع سندوتشات السجق (hot dogs) على عربة في سنترال بارك [وهي بالمناسبة أسوأ مهنة يقوم بها إنسان في نيويورك، وعادة ما يقوم بها المهاجرون الذين وصلوا لتوهم إلى الولايات المتحدة، ويتعرضون إلى أسوأ أنواع الاستغلال من قبل الشرطة، ومن قبل أصحاب العربات]. فانضم لي مهاجر من شيلي وكان ذكيًا للغاية وبدأ يضارب في الأسهم والسندات وحقق ثروة طائلة. فذهب واشترى البيت الكبير وتزوج الزوجة الشقراء واشترى السيارتين الكبيرتين وأنجب الطفلين، ثم طلق زوجته وهجر ولديه وأجرى عملية جراحية وتحول إلى امرأة، هذا هو الحلم الأمريكي الآن". لم أجد معنى لهذه القصة سوى أن هذا الأمريكي المسحوق وجد أن الخريطة الإدراكية التي يسيطر عليها الحلم الأمريكي لا تتفق مع الواقع، وأن ثمة خللا ما، والقصة تشير إلى أن النهاية السعيدة المفترضة لا أساس لها من الصحة.

تشومسكي في القاهرة

وفي سيرة غير ذاتية غير موضوعية مثل هذه، لابد أن أذكر مقابلاتي مع نعوم تشومسكي والحوار الذي دار بيني وبينه في القاهرة عام ١٩٩٤. وكما قلت من قبل، تأثرت إلى حدٍّ كبير بثورة تشومسكي التوليدية، ولذا كنت أتطلع إلى زيارته لمصر. ولفهم الحوار الذي دار بيني وبينه لابد من تلخيص فكره اللغوي والفلسفي: سماته الأساسية وتناقضاته الكامنة، وهو أمر صعب للغاية.

ويمكننا أن نقول إن فكر تشومسكي ينطلق من الثنائية الأساسية (ثنائية الإنسان والطبيعة) التي تُشكِّل جوهر الرؤية الإنسانية (الهيومانية) للعالم وللفكر العقلاني المادي المتمركز حول الإنسان، والذي لم يسقط في التشيؤ والعدمية. ولعل إبداع تشومسكي (والثورة البنيوية التوليدية ككل) يتبدى بالدرجة الأولى في عملية النظر إلى البناء التحتي لا بحُسبانه بناءً موضوعيًا ماديًا مصمتًا مغلقًا، وإنما بحُسبانه علاقات وأفكارًا كامنة في العقل ذاته، تعبّر عن نفسها من خلال أشكال وظواهر كثيرة. والعقل الإنساني، بالنسبة لتشومسكي، هو أعمق البنَى. وهذا العقل ليس عقلاً سلبيًا ولا صفحة بيضاء، ولا يكتسب أفكاره تدريجيًا (بشكل تراكمي) من البنية المحيطة به، ويدور في إطار أنساق

www.scantopdf.eu

مغلقة مصمتة اختزالية، كما يرى السلوكيون، وإنما هو عقل نشط فعال يمتلك إمكانات إبداعية وملكات مفطورة كامنة فيه هي في واقع الأمر أشكال وبنىً قَبْلية تتبع قواعد معيَّنة ذات مقدرة توليدية وتؤدي دورًا أساسيًا في عملية اكتساب المعرفة. وهذا يعني أن الإنسان لا تتحكم فيه الدوافع الخارجية أو البيئية، وأن قدراته الإبداعية التوليدية تمنحه قدرًا كبيرًا من الاستقلال والحرية، وأنه يدور في إطار أنساق مركبة مفتوحة تختلف عن الأنساق الطبيعية المغلقة.

لهذا نجد أن نقطة الانطلاق عند تشومسكي عقلانية جوانية استدلالية، وليست تجريبية برانية استقرائية، فهو يبدأ من العام والبنية والنمط ومن المعطيات القَبْلية الكامنة في عقل الإنسان، ولا يدع العقل يقف على عتبات البيانات والمعطيات الحسية والبراهين الجزئية والبيئة المادية وكأنه وعاء سلبي تصب فيه المعرفة، وإنما يقف بحُسبانه كيانًا إيجابيًا مبدعًا يعطي مثلما يأخذ، ويلون المعرفة التي يكتسبها من الواقع. ولذا فإن صياغة الفروض العلمية والنماذج التفسيرية - حسب تصورُ تشومسكي - أمر منوط بالعقل والخيال، وليس أمرًا خاضعًا للحواس. لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن الحواس قد تم إلغاؤها، فهي مسألة أسبقية، ونحن هنا أمام ثنائية هرمية يسبق الإنسان فيها الطبيعة، ويسبق العقل فيها الحواس، ويسبق الخيال الفعال فيها التلقي السلبي للمعطيات الحسية.

ويرى تشومسكي أن أهم الإمكانات الكامنة في عقل الإنسان هي مقدرته اللغوية. فاللغة تمثل لحظة فارقة في تاريخ الكون، فهي ما يُميِّزه من الكائنات الأخرى التي تعيش مع الإنسان في هذه الأرض وداخل إطار الطبيعة، ولكنها مع هذا ليس لها الفطرة اللغوية. ولغة البشر مختلفة بشكل جوهري عن لغات الحيوانات وطرق التواصل بينها. ولذا فإن تشومسكي يتحدث عن «معجزة اللغة»، فبها يُكوِّن المجتمع وتتقدم الحضارة ويظهر الفكر.

وكدليل على رؤية تشومسكي (الثورية التوليدية) للغة بحُسبانها مفطورة في العقل، فإنه يشير إلى الزمن الذي يقضيه الطفل البشري (الذكور منهم والإناث، الأذكياء منهم والأغبياء) في تعلم لغته الإنسانية. فهذا الطفل يتعلم لغته بسرعة وبلا جهد وبكفاءة عالية خلال عام (وهو وقت أقصر من الوقت الذي يستغرقه بعض الرجال في تعلم قيادة سيارة)، مع أن وصف قواعد أي لغة قد يستغرق عدة سنوات من الباحثين. ويصل الطفل

www.scantopdf.eu

إلى مرحلة امتلاك اللغة بين سن الخامسة والسادسة، أي أنه يتملك ناصية نظام لغوي متكامل، مُكوَّن من مجموعة هائلة ومركبة من القواعد، ويتطلب استخدامه كثيراً من قواعد المنطق (الاستقراء والقياس) وقواعد التحويل وقواعد الترتيب التي لو تعلمها الطفل عن طريق الاكتساب لاستغرق في ذلك عشرات السنين. واللغة الإنسانية أفضل مرآة تعكس العقل، فثمة تَماثُل بين بنيتي العقل واللغة، أي أن اللغة هي بمنزلة البناء السطحي لبنية أكثر عمقًا هي العقل الإنساني.

إن النظام المعرفي (الكلي والنهائي) عند تشومسكي يستند إلى ثنائية الإنسان والطبيعة، وإلى الإيمان بأن البشر مختلفون عن كل من الحيوانات (النموذج العضوي) والآلات (النموذج الآلي)، وأن هذا الاختلاف لابد أن يُحترَم، فهذا هو أساس كرامة الإنسان وأخوةً البشر. هذا الإيمان باستقلالية العقل عن البيئة المحيطة به وإبداعه، هو أساس هجومه على الفلسفة الوضعية والتجريبية والمدرسة السلوكية، فهي فلسفات لا تكترث بالبنَى العميقة، أي ما يُميِّز الإنسان من بقية الكائنات. فالمدرسة السلوكية، على سبيل المثال، تكتفي بوصف البنية السطحية في أشكالها المادية المنطوقة (المسموعة) والمكتوبة ولم تتجاوز ذلك إلى التعرف على البنية العميقة.

ويرى تشومسكي - استنادًا إلى كل هذا - وجوب تأسيس علوم اجتماعية تدرس الطبيعة البشرية بأعتبارهاكيانًا مستقلاً عن الطبيعة [المادية] لضمان حرية الإنسان وتعميقها. وهذه العلوم لابد أن تكون ذات أسس راسخة في الطبيعة [المادية] البشرية ذاتها. ولابد أن ينبع العمل الاجتماعي من تَصوُّر لطبيعة المجتمع في المستقبل وأن يستند إلى بعض الأحكام الواضحة بشأنه، وهي أحكام تستند بدورها إلى رؤية للطبيعة البشرية. فمفهوم الطبيعة البشرية مفهوم محوري عند تشومسكي، وهو يشير إلى كيفية التوصل إليها من خلال الدراسة الإمبريقية، إذ إن هذه الطبيعة تتبدَّى في سلوك الإنسان وإبداعاته المادية والفكرية والاجتماعية.

ولكن مفهوم الطبيعة البشرية بالنسبة لتشومسكي ليس مفهومًا إمبريقيًا محضًا. ففي حوار له مع بيل موبرز Bill Moyers طرح عليه هذا الأخير الإشكالية الهوبزية بطريقة ماكرة، إذ سأله: «هل تعتقد أن البشر يحنون بطبيعتهم للحرية، أم أنهم على استعداد لأن يخضعوا للنظام مقابل الأمن والأمان؟» فكان رد تشومسكي قاطعًا: «هذه مسائل خاصة

www.scantopdf.eu

بالإيمان لا المعرفة، عليك أن تُوجِّه آمالك نحو ما تؤمن به . . . وأنا أحب أن أؤمن بأن الناس قد وُلدوا أحراراً، ولكنك إن طلبت مني دليلاً على ذلك لما أمكنني أن أعطيك إياه». فسأله موير في دهشة: «أنت تتحدث عن الإيمان، فهل «تؤمن» بالحرية؟» فأجابه تشومسكي: «أحاول ألا يكون إيماني غير عقلاني، فنحن يجب أن نسلك على أساس معرفتنا وفهمنا مع تمام العلم بأن معرفتنا محدودة . . . ولكنه، على أي حال، إيمان خاضع لاعتبارات الحقائق والعقل». وتشومسكي، بهذا، يطبِّق على الطبيعة البشرية نفسها المنهج العقلاني الذي طبقه على المبحث اللغوي، وهو أمر منطقي أن نبدأ بما نتصوره المقدرة المثالية ثم ندرس الأداء الفعلي: المثالي قبل المادي، والعقلي قبل الحسي، والإنساني قبل الطبيعي.

بعد أن عرضنا لبعض الجوانب الأساسية لرؤية تشومسكي التوليدية، لابد أن نشير إلى أنه على الرغم من أن نقطة انطلاقه هي ثنائية الإنسان والطبيعة، فإن ماديته الصارمة تدفع به نحو إنكار هذه الثنائية ومحوها وتأكيد الواحدية المادية. هذا التناقض كان محور النقاش بيني وبينه في أثناء زيارته للقاهرة، فقد طرحت عليه قضية «الطبيعة»، وهو مصطلح يستخدمه بشكل مبهم أحيانًا. سألت تشومسكي: ما الطبيعة؟ وهل هناك داخل البشر ما يُميِّزهم من الطبيعة، أو أنهم جزء لا يتجزأ منها لا يتجاوزها قط؟ وأشرت إلى بعض آرائه ولعبارة «معجزة اللغة» على وجه التحديد، وسألته ألا تعني هذه العبارة خرقًا لقوانين الطبيعة والمادة في حالة الإنسان، أو على الأقل انقطاعًا وعدم استمرار. ومضمون سؤالي كان، في واقع الأمر، عن الثنائية العميقة التي تسم رؤيته. ولكن تشومسكي، شأنه شأن كثير من الفلاسفة الغربيين العلمانيين يحاول أن يُنكر أي ثنائية حينما يُواجَه بالتضمينات الفلسفية لنسقه المعرفي. ولذا ضاق تشومسكي ذرعًا بسؤالي وأجاب إجابة تنم عن الضيق، وقال: الطبيعة هي كل ما هناك، والطبيعة لا تُردُّ إلى شيء خارجها (بالإنجليزية: نيتشر إز إرديوسابل nature is irreducible)، وهذا اختيار ميتافيزيقي ليس له ما يسوغه. وقد عُدت إلى كتاباته أبحث عن إجابة أكثر تفصيلاً وإفاضة، فوجدت أن تشومسكي الذي يؤكد كمونية الأفكار يرى أنها في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إن هي إلا جزء من بيولوجيا الإنسان (شأنها في هذا شأن الجوانب الفسيولوجية التشريحية). ولذا، لا يتردد تشومسكي في أن يصف مَلَكة اللغة (معجزة اللغة) في مصطلح بيولوجي

www.scantopdf.eu

مادي حتمي صرف. فاكتساب الطفل للغة لا يختلف عن تغييره أسنانه من الأسنان اللبنية إلى الأسنان الناضجة، وكالمراهق حين تتغيَّر خصائصه التشريحية. فاللغة تنمو فسيولوجيًا، تمامًا مثل أي صفات تشريحية أخرى، من تلقاء نفسها. أي أن كلمة «كامن» تصبح «فسيولوجي» أو «فيزيائي»، والبنَى العقلية الكامنة هي بنَى فيزيائية. والكمون لا يعني في واقع الأمر سوى البرمجة البيولوجية أو التشفير (بالإنجليزية: بروجرام pro-gram وكود code)، وهي كلمات تشير إلى نظم مغلقة حتمية. ولا يتردد تشومسكي في أن يصف نظمنا العقدية بأنها النظم التي يقوم العقل (بحُسبانه بنية بيولوجية) بإنتاجها. ويرى تشومسكي أن العقل قد «صُمم» (بالإنجليزية: ديزاينيد designed) لتوليدها. والكلمة في الأصل الإنجليزي تعني «تصميم»، ولكنه «تصميم هندسي لآلة»، أي إن الكلمة التي تشير إلى الإبداع تستدعي في الوقت نفسه نظامًا مغلقًا حتميًا. ويبدو أن هذه ليست مجرد صور مجازية لوصف شيء يصعب وصفه باللغة المباشرة وإنما هو وصف حرفي، إذ إن تشومسكي يشير إلى العقل بحُسبانه عضو التفكير (بالإنجليزية: منتال أورجان mental organ) أو وحدة قياسية (بالإنجليزية: موديول module)؛ فالعبارة الأولى وصف عضوي للعقل، والثانية وصف آلي، وكلاهما مغلق وحتمي. وكل النظريات العلمية التي تم تطويرها عبر تاريخ البشرية مستمدة من حصيلة محدودة من النظريات الممكنة وفرتها لنا الجينات (النظام البيولوجي) وتناقلها الأجيال. وهكذا توارى الإبداع وحلت محل الحتمية البيئية والاجتماعية (التي نادى بها السلوكيون والتي هاجمها تشومسكي) حتمية بيولوجية.

هنا سألت تشومسكي مجموعة من الأسئلة: ما الفرق إذن بينه وبين السلوكيين إذا كان كل شيء بيولوجيًا فيزيائيًا مُشفَّرًا في الجينات؟ وإذا كان علينا أن نتبع الطبيعة (البرامج الطبيعية التي صُمِّمت مسبقًا)، أفلا يمكن إذن دراسة الإنسان كما تُدرس الفئران (وهذه خطيئة السلوكيين الكبرى في نظره)؟ وألا يصبح البناء الظاهر أكثر أهمية من البناء الكامن؟ ألا يمكن «للخبراء» (الذين يكرههم تشومسكي بعمق لأنهم العمود الفقري للنظم الشمولية التكنوقراطية البيروقراطية التي اجتاحت المجتمع الحديث) أن يوفروا علينا الكثير من العناء ويدرسوا الموضوع (الإنساني) بآلاتهم العلمية الدقيقة، ويرسموا خريطة علمية دقيقة لما سيفعله الإنسان تحت ظروف معينة، أي أن يتنبئوا بسلوكه ومن ثم يمكنهم التحكم

www.scantopdf.eu

فيه، كما أن بوسعهم أن يقرروا ما يجب أن يفعله الإنسان وما يجب عليه تحاشيه، أي تطوير نظام أخلاقي «علمي» ؟ أليس هذا هو ذاته قمة الحتمية التي يحارب ضدها تشومسكي ؟

ثم دفعت السؤال إلى ناحية حساسة وسألته : على أي أساس يمكن التصدي لمجموعة من الخبراء أو العلماء (النازيين) الذين يرون أن بإمكانهم تحقيق السعادة للمجتمع من خلال الهيمنة عليه وإخضاعه للنماذج العلمية، المادية الكمية ؟ أليس بوسع هؤلاء الخبراء أن يستخلصوا لنا قوانين الطبيعة التي يمكن على أساسها تأسيس المجتمع وتحديد ما هو خير وما هو شر وما هو نافع وما هو ضار ؟ وماذا لو قال هؤلاء الخبراء إن المسنين والمعوقين واليهود يقفون ضد قوانين الطبيعة (الإنتاجية – السعادة المادية) ؟ ماذا يمكن أن نقول لهؤلاء الخبراء، لا سيما أن تشومسكي نفسه يؤمن بضرورة «توجيه» الشعب إن أخطأ (حسب ما قاله لي في القاهرة) ؟ أي أنني ألمحت إلى أن هذه العقلانية المادية تؤدي إلى الواحدية والعقلانية التكنولوجية التي تؤدي بدورها إلى التجريبية والوضعية والسلوكية والهيمنة والتحكم .

فبيَّن تشومسكي أن كلمة «فيزيائي» (أي مادي) حسب تَصوُّره قد تم توسيع مدلولها تدريجيًا لتغطي أي شيء يمكن فهمه، ولذا فالكلمة لا تُعرَّف بمعزل عن العقل . ومضمون الكلمة سيتسع ليغطي كل الخصائص التي يكتشفها العقل . فأشرت إلى أن المرجعية النهائية في هذه الحالة ستظل هي العالم المادي والفيزيائي، أي أن الإنسان يُستوعب في الطبيعة . وذكَّرته بالعبارة التي استخدمها «الطبيعة لا يمكن أن تُردُّ لأي شيء خارجها»، وهذا هو الافتراض السلوكي الأساسي . ثم أشرت إلى أحد أهم الأنماط الفكرية العامة في الحضارة الغربية : محاولة التجاوز من خلال المادة، ملمحاً إلى أنه ينضوي تحت هذا النمط .

ثم أشرت إلى أن الأفكار الكامنة يمكن أن تكون إيجابية أو سلبية، وأنه في إطار الحتمية البيولوجية التي يتحرك في إطارها لا يوجد مجال لقبول البعض ورفض البعض الآخر، فالطبيعة هي كل ما هناك، وعلينا قبولها والإذعان لها !

وقد طلبت من تشومسكي أن يُفسِّر لي ظاهرة ما بعد الحداثة في الغرب، وهي فلسفة تقف على طرف النقيض من فلسفته فهو يؤمن بمعجزة اللغة ومقدرة الإنسان على توليد نظم اتصالية تستند إلى إنسانية مشتركة، أما ما بعد الحداثة فتؤدي إلى انفصال الدال عن

www.scantopdf.eu

المدلول وإلى عطب اللغة واستحالة التواصل، ومن ثم إلى انسحاب العقل واستحالة إقامة العدل. وكان الهدف من السؤال أن أُبيِّن له أن النظم الفلسفية المادية يمكن أن تؤدي إلى أي شيء، وأن إيمانه بالإنسان، النابع من إيمانه بمعجزة اللغة، هو إيمان نابع من شيء كامن في الإنسان، ولكنه في الوقت ذاته مُتجاوز للنظام الطبيعي (أي نابع من ثنائية مبدئية). فكان رده هذه المرة جافًا وصارمًا إذ قال: إن ما بعد الحداثة نتاج ثرثرة المثقفين الفرنسيين الذين يجلسون على المقاهي يضيعون وقتهم فيما لا يفيد! فأخبرته بأن هذه الثرثرة تحولت إلى أهم اتجاه فلسفي في الغرب، ولذا فالأمر يحتاج إلى تفسير.

وأخيرًا، أثرت مع تشومسكي قضية الدين والأدب والفن (وكان في ذهني كتابات علي عزت بيجوفيتش الذي ربط بينها، وبيَّن أنها نابعة من شيء غير مادي في الإنسان)، وأنه برغم حديثه المستمر عن الإبداع لا يعالج إلا السياسة وبشكل مباشر، وأن كتاباته اللغوية لا تتعرض أبدًا لأي نصوص أدبية، والنص الأدبي نص لغوي مكثف يبيِّن «معجزة اللغة» عن حق. فقال إنه سمع هذا النقد من قبل، ولعل انشغاله بالسياسة هو السبب (وهو تفسير غير كاف في تصوري). أما فيما يتصل بالدين، فقد قال إنه لم يمكنه قط أن يتعامل مع فكرة الإله أو ما وراء الطبيعة ولا يمكنه أن يفهمها، وأن مناقشة مثل هذه الأمور أمر لا طائل من ورائه. وأعتقد أن إهماله الدين والأدب والفن نابع من حتميته البيولوجية الواحدية، ولذا فهو يؤثر الابتعاد عن الحقول المعرفية التي يمكن أن تثير له أسئلة تقع خارج نطاق نموذجه المعرفي.

ويبدو أن الحوار بيني وبينه كان حامي الوطيس، ولذا برغم اتفاقي معه على إجراء حوار يُسجَّل بالفيديو في منزلي، وبرغم موافقته المبدئية، وبرغم استئجارنا للأجهزة اللازمة وإعدادنا لفريق التصوير، رغم كل هذا رفض تشومسكي الحضور في اللحظة الأخيرة، حرفيًا. إذ كان موعدنا هو الساعة السابعة وقرر هو عدم الحضور في الساعة السابعة إلا خمس دقائق!

النماذج كأداة تحليلية

كان من الحتمي أن يواكب رفض الموضوعية الفوتوغرافية وفكرة العقل السلبي، وهي تحولات في رؤيتي لعقل الإنسان وعلاقته بالواقع المادي، ومن ثم في الفلسفة الكامنة وراء

Produced with scantopdf
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

المنهج، أقول كان من الحتمي أن يواكب كل هذه التحولات تحول في الأدوات المنهجية، ولذا اتجهت نحو البحث عن أداة تحليلية تيسر لي عملية الرؤية الكلية للظواهر والأفكار والربط بين العديد من التفاصيل والموضوعات التي تبدو وكأنها لا علاقة للواحد منها بالآخر والربط بين مستويات الواقع المختلفة : العام والخاص، والمجرد والمتعين، والموضوعي والذاتي، أداة تجعلني أتجاوز الرصد المباشر والموضوعية المادية المتلقية دون السقوط في الذاتية، أداة يمكنها أن تحيط بتركيبية الواقع والظاهرة الإنسانية .

وقد وجدت بغيتي في نهاية الأمر في النماذج التحليلية . ولعل التجارب العديدة من الانتقال الزماني والمكاني هي التي عمقت فيّ فكرة النماذج كأداة تحليلية (خاصةً وأنا لا أسافر إلى مكان حتى ولو للسياحة إلا بعد أن أكون قد قرأت عن تاريخه ومعتقداته وحضارته) . فالانتقال من بلد إلى بلد هو في واقع الأمر انتقال من مرحلة زمنية (يتجلى من خلالها نموذج محدد) إلى مرحلة زمنية أخرى . أي أن الانتقال المكاني، في كثير من الأحيان، لا يختلف كثيراً عن الانتقال الزماني . فمدينة دمنهور التي وُلدت فيها والتي قضيت فيها طفولتي وصباي، كانت مدينة نصف حديثة نصف تقليدية . ولكني قضيت مطلع شبابي في الإسكندرية التي كانت مدينة أوربية حديثة بمعنى الكلمة حتى منتصف الخمسينيات . وقضيت جزءاً كبيراً من شبابي في الولايات المتحدة، التي كانت بلداً محافظاً للغاية (بشكل خانق) في أوائل الستينيات حين ذهبت إلى هناك، ثم رأيت عناصر التحلل والتفكك تدخل عليه إلى أن أصبح بلداً مختلفاً تماماً مع منتصف السبعينيات . ثم عدت إلى القاهرة في السبعينيات، قاهرة الانفتاح (بعد أن كنت قد تركت ورائي في الستينيات القاهرة «قلب العروبة النابض» و«قلعة الاشتراكية العربية»)، وانتقلت منها إلى السعودية وعدة بلاد عربية وغربية أخرى . وكل بلد انتقلت إليه كان يمثل لحظات تاريخية وحضارية الواحدة مختلفة عن الأخرى على الرغم من تزامنها . وكان عليّ أن أفسر كل لحظة لنفسي وأن أبحث عن نوع من الوحدة وراء التنوع، **وإلا لأدركت الواقع كمجموعة من التفاصيل المتناثرة وأصبت بالجنون**، أو لسقطت في التلقي السطحي للأمور وفي الموضوعية الفوتوغرافية (وهي - في تصوري - لا تختلف كثيراً عن الجنون أو على الأقل عن التخلف العقلي) . وفي محاولة التفسير هذه، تعززت فكرة النموذج كأداة تحليلية (دون استخدام المصطلح بطبيعة الحال) .

ومما يسّر عليّ التوصل لفكرة النماذج قراءاتي في أعمال ماكس فيبر وفي تركيزه على

www.scantopdf.eu

فكرة النمط المثالي (بالإنجليزية : أيديال تايب ideal type). وقد قرأت أيضًا بعض أعمال الناقد الأمريكي ماير أبرامز Meyer Abrams خاصةً كتاب **المرآة والمصباح** الذي يعطي تاريخًا للنقد الأدبي الغربي من خلال موضوعات أساسية ويربطه بتاريخ الأفكار. كما أن أعمال الناقد الأدبي رينيه ويليك René Welelk النقدية كان لها أعمق الأثر فيّ، فعقليته جرمانية تبحث دائمًا عن وحدة ما وراء التفاصيل الفكرية والنقدية التي يأتي بها.

وفي الدراسات الأدبية، يحاول الباحث ألا يظل على مستوى الموضوع المباشر الظاهر (بالإنجليزية : سابجيكت subject)، وإنما يحاول الغوص للوصول إلى الموضوع الأساسي الكامن (بالإنجليزية : ثيم theme). والموضوع الأساسي الكامن يتسم بأنه يربط بين كل أجزاء النص ويمنحه الوحدة التي لابد أن يتسم بها إن كان نصًا جيدًا. ولأن الموضوع الأساسي كامن، لا يمكن للعقل رصده بشكل مباشر، وإنما عليه أن يكد ويتعب ويجتهد ويُفكّك ويُركّب ويُجرّد ليصل إليه. ودراستي للموضوعات الأساسية الكامنة في الأعمال الأدبية كان تمهيدًا حقيقيًا لتبني النماذج كأداة تحليلية.

ومن المناهج الأدبية التي تأثرت بها منهج دراسة العمل الأدبي من خلال الصورة. وهذا المنهج يفترض أن الصور التي يستخدمها أديب ما تعبّر عن الموضوع الأساسي الكامن في النص الأدبي أكثر من أي عنصر آخر فيه، بل أكثر مما قد يقرره الأديب نفسه بشكل صريح واضح واع. ولذا يقوم الناقد الذي يستخدم هذا المنهج بدراسة الصور المتناثرة في العمل الأدبي، فيربط بينها ويجرد منها أنماطًا أساسية يحاول أن يكشف مغزاها ويراها ككل يتطور وكوحدة لها منطق داخلي ومعنى. فكنا ندرس على سبيل المثال صور الدم والنوم في مسرحية ماكبث وصور العطش والريح في «الملاح القديم»، وهكذا. وقد استوعبت هذا المنهج، ولا تزال دراسة الصورة المجازية طريقة أساسية بالنسبة لي لتحديد الموضوع الأساسي الكامن في نص (سياسي وأدبي) ما. وقد كتبت دراسة عن الصورة المجازية العضوية والصورة المجازية الآلية بحُسبانهما نموذجين إدراكيين أساسيين في الحضارة الغربية.

وقرأت كذلك كتابات نورثروب فراي Northrop Frye الناقد الأدبي الذي حاول أن يطوّر نظرية شاملة تستند إلى فكرة النمط الأوّلي (بالإنجليزية : آرك تايب archetype)، وهي الرموز المتكررة المغروسة في لا وعي الإنسان الجمعي مثل الريح رمز عودة الحياة،

www.scantopdf.eu

والمطر رمز الخصب، وهكذا. وأخيراً درست كتابات المدرسة البنيوية، وقرأت بعض قراءاتهم البنيوية للأعمال الأدبية، وكانت قراءات، والحق يقال، مملة مجردة طويلة تقول أبسط الأمور بأعقد الطرق، ولكنها مع هذا كانت تحاول الوصول إلى جوهر البنية في تركيبيتها وتشابك عناصرها وعلاقاتها. والقاسم المشترك الأعظم بين كل هذه المدارس الأدبية أنها تحاول أن تدرك الوحدة الكامنة خلف التنوع والتفاصيل. وبالتالي كانت تمهيداً حقيقياً لتبني النماذج كأداة تحليلية وتدريباً عليه.

والنموذج - كما أشرت في المقدمة - هو بنية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واع أو غير واع) من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق (الموضوعية)، فهو يستبعد بعضها بحُسبانها غير دالة (من وجهة نظره) ويستبقي البعض الآخر. ثم يربط بينها وينسقها تنسيقاً خاصاً، ويجرد منها نمطاً عاماً.

وعملية الربط حتمية قبل التجريد، وكلاهما يحرر المعلومة بعض الشيء من فضائها الخاص (زمانها ومكانها المباشرين) بحيث تصبح ذات مقدرة تفسيرية عللية. (أما السمة الأساسية في الموضوعية المتلقية والمعلوماتية، فهي الفصل بين المعلومات، بحيث تظل كل معلومة ملتصقة بفضائها ومناسبتها، لا يمكن إدراكها داخل نمط عام، ومن ثم يمكن أن يفرض عليها أي معنى وأي اتجاه). والنموذج لا يرصد ماهو قائم وحسب، و إنما قادر على صد ماهو كامن ومن ثم فهو أداة ثورية، على عكس الموضوعية المتلقية التي تكرس الأمر الواقع.

وقد ضربت مثلاً في مقدمة **الموسوعة** بنصين مكتوبين، وهما حديثان شريفان: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، فلا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض». أما الحديث الثاني فهو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ بهذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر» (أي في كل حي من الحيوان والطير ونحوهما).

في محاولتي شرح طريقة التوصل للنموذج الكامن، بيَّنت أنه بوسع الباحث أن يقوم

www.scantopdf.eu

بتقسيم الحديثين إلى وحدات متقابلة مختلفة تشكل عناصرهما الأولية. وهي في الحديث الأول: امرأة - قط - جوع - زيادة الجوع - موت - جهنم. أما في الحديث الثاني فهي: رجل - كلب - عطش - سُقيا - حياة - جنة.

على هذا المستوى المباشر (حصر عناصر الحديثين كما هما في إطار الموضوعية المتلقية)، سيقف الحديثان كما لو كانا متقابلين. ففي الحديث الأول امرأة وفي الثاني رجل، وفي الأول هرة وفي الثاني كلب، وفي الأول جوع وفي الثاني عطش، وفي الأول بطش بالحيوان وزيادة الجوع، وفي الثاني رفق بالحيوان وري للعطش، وينتهي الحديث الأول بالموت وجهنم وينتهي الثاني بالحياة والجنة. وتحليل المضمون السطحي دائمًا يقف عند هذا المستوى لا يتجاوزه وينهمك الباحث في إحصاء عدد الكلمات التي تشير إلى موضوع ما.

ولذا كي نفهم الحديثين لابد أن نقوم بعمليتي الربط والتجريد، بحيث تُتجاوز عناصر كل حديث الفضاء الزماني والمكاني المباشر لكل منهما، حتى يمكن رؤيتهما في علاقة كل منهما بالآخر. وستأخذ عمليتا الربط والتجريد الشكل التالي: المرأة والرجل يتم ربطهما الواحد بالآخر ثم يجردان إلى إنسان - القطة والكلب: حيوان - الجوع والعطش: نتيجة حتمية (حياة - موت) - البطش بالحيوان وزيادة الجوع والرفق بالحيوان وري العطش: فعل إنساني - موت القطة وحياة الكلب: نتيجة مادية - الجنة والنار: نتيجة روحية.

ثم نزيد من عمليات الربط والتجريد على النحو التالي: فاعل - مفعول به - فعل - عاقبة. والإنسان هو الفاعل، والحيوان هو المفعول به، وثمة فعل يؤدي إلى نتيجة.

ويمكن، عند هذه النقطة، أن نرتفع بعمليتي الربط والتجريد إلى المستوى المعرفي ورؤية الكون. ولابد من معرفة بعض المفاهيم الأساسية الحاكمة في الإسلام (الاستخلاف - الأمانة - وضع الإنسان في الكون)، فهذا سيساعدنا على الوصول إلى البُعد المعرفي وإلى تحديد العلاقة بين الإنسان (الفاعل) والحيوان (المفعول به). ومن كل هذا سنستنتج أن الحديثين يتحدثان عن علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي علاقة استخلاف واستئمان، فالإنسان يُوجَد في مركز الكون لأن الله كرمه وحباه عقلاً وحكمة. وقد أعطاه الله الطبيعة ولكنه ليس بصاحبها، فقد استخلفه فيها وحسب وقد قَبِل هو أن يحمل الأمانة، ولذا فهو لا يمكن أن يبددها وكأنه هو وحده في الكون: كائن لا متناه متأله.

www.scantopdf.eu

وبعد عمليات الربط والتجريد والإبقاء والاستبعاد تتكون صورة أو خريطة إدراكية يتصور صاحبها أنها مماثلة في تناسقها وترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع الذي يرصده أو عناصر النص الذي يدرسه. وقد أشرت إلى أن النموذج هو مجموعة من الصفات التي تحولت إلى صورة متماسكة ترسخت في أذهاننا ووعينا بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها، فهي رؤية متكاملة للواقع في أغلب الأحيان.

واستخدام النماذج مسألة حتمية فهي تدخل في صميم عملية الإدراك، لأن الإنسان لا يدرك شيئًا بشكل مباشر، وإنما من خلال نموذج (نسميه «النموذج الإدراكي»). والنماذج الإدراكية في كثير من الأحيان غير واعية، يستبطنها المرء تدريجيًا وتصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه المباشر، بل وتفاصيل حياته وما يتعامل معه من أشياء ومنتجات حضارية (منزله - ردائه - طعامه - الأغاني التي يستمع إليها)، ويتم كل هذا في معظم الأحيان دون وعي منه. وقد ذكرت من قبل قضية الهدية وبطاقة الشكر بعد الدعوة لتناول طعام العشاء. ومن الواضح أن من قدَّم الهدايا وأرسل ببطاقة الشكر لم يفعل ذلك واعيًا بتضمينات فعله المختلفة.

وسأورد بعض الأمثلة الأخرى، لأبيِّن مدى هيمنة النماذج الإدراكية على لا وعي الإنسان وطريقة إدراكه للواقع: كنت في منزلي في الولايات المتحدة، وكانت زوجتي في إنجلترا تجمع المادة العلمية لرسالتها للدكتوراه في إنجلترا. وفجأة انتابني شك عميق في أن ابني الصغير مريض. فقست درجة حرارته، وبالفعل وجدتها مرتفعة. فاتصلت على الفور بالطبيب لأحدد موعدًا معه، فسألتني الممرضة عن «مسز المسيري» (حيث اعتادت أن زوجتي هي التي تأخذ طفلينا للطبيب)، فأخبرتها بأن مسز المسيري في إنجلترا. ثم أضفت بحدة واضحة أنه لا يوجد وقت نضيعه في مثل هذه الأسئلة، إذ لم أر أي علاقة بين السؤال والموقف الحرج الذي وجدت نفسي فيه. فطلبت مني بحزم أن أضع سماعة التليفون وأن أقيس درجة حرارته مرة أخرى. وحينما فعلت وجدت أن حرارته عادية، فاتصلت بالممرضة لأخبرها أن كل شيء على ما يرام. فضحكت الممرضة، وعنفتني قائلة: «إنني لابد من الصنف الذي يتهم زوجته بالقلق المفرط على الأولاد»، فاعترفت بذلك. (أصف زوجتي بأنها رئيسة لجنة القلق العليا!). فأخبرتني بأن هذا نمط (أي نموذج) سائد: في غياب الزوجة تسيطر على الزوج النماذج الإدراكية التي تسيطر على

www.scantopdf.eu

زوجته ، فهو يحل محلها وظيفيًا . ويتم كل هذا دون وعي منه ، وأنها حينما سألتني عن مسز المسيري وعرفت بغيابها ازدادت يقينًا أنها حالة «قلق وظيفي أو نماذجي» ، وهي حالة قلق غير واعية يقع الإنسان في براثنها دون أن يدري ، حيث يقلق الزوج «نيابةً» عن الزوجة . وهذا يبين مدى قوة النموذج (ومدى قوة التحيزات الكامنة داخله ، الأمر الذي سأتناوله فيما بعد) .

وقد حدث لي حادث طريف آخر لم أفهم كنهه إلا بعد فترة ، وعن طريق المصادفة . فقد كنت سائرًا في مطار نيويورك ، فأوقفتني سيدة أمريكية لتقول لي : «رائحتك جميلة للغاية You smell so nice» ، ثم تلعثمت وارتبكت وسارت إلى حال سبيلها وهي في خجلها الشديد . وكنت في أحد الفنادق في واشنطن حيث تقوم المستولة عن الاستقبال بحمل حقائبنا (من باب التوفير ، فالفندق ليس فيه شخص مختص بحمل الحقائب Beilboy وأخبرتها بأنني چنتلمان لا يمكن أن أسمح لسيدة بأن تحمل حقائبي ، فأصرت على موقفها وحملت الحقائب . وإذا بها فجأة تترك الحقائب تسقط على الأرض وتقول : «د . المسيري ، إن رائحتك جميلة للغاية Dr. Elmessiri, you smell so nice» ثم تلعثمت وانتابها هي الأخرى الخجل ، وبدأت الأوهام تساورني بأن سحري لا يقاوم ، وإلا كيف تفسر هذا العدد من الضحايا ؟ والمرة الثالثة كنت أتناول طعام الإفطار مع صديقي المؤرخ كافين ريلي حينما قالت زوجته «you smell so nice» . توقفت على التو وأخبرتها بما حدث لي في المطار وفي الفندق قائلاً : إنني اشتريت العطر مع زوجها ، وأتذكر أنه من العطر الرخيص ، فهو أولد سبايس ، دفعت فيه بضعة دولارات . فضحكت وقالت : إن السيدات اللاتي عبَّرن عن إعجابهن بعطري ، لابد أنهن فوق الأربعين (وبالفعل كن كذلك) . ثم أردفت قائلة : إن أولد سبايس هو تقريبًا العطر الوحيد الذي كان متاحًا في الستينيات (قبل الهجمة الاستهلاكية) وكان آباؤهن يضعون هذا العطر ، ومن ثم فهو يذكرهن بطفولتهن ! فضحكنا نحن كلنا ، لأن رؤيتنا تغيَّرت تمامًا بعد معرفة السبب أو النموذج الكامن وراء الأحداث والذي يمنحها الوحدة والمعنى . واختفت فورًا صورة دون جوان الخطير وحلت محلها صورة الأب الوقور الحنون ، الذي لا يمثل أي خطر ! وهذه القصة أرويها دائمًا لأبيِّن كيف أننا يمكن أن نسيء تفسير الواقع ، وكيف يمكن لواقعنا أن يصبح تفاصيل متناثرة إما غير مفهومة ، وإما تفاصيل نفرض عليها تصوراتنا القاصرة ، إن لم نفهم النموذج الحاكم والتحيزات الكامنة فيه .

www.scantopdf.eu

وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ ذهبت لإعطاء أول محاضرة للطلبة (والطالبات) في كلية الآداب جامعة عين شمس (إذ كنت قد انتدبت هناك). وقيل لي إن المحاضرة في مدرج كذا، فذهبت إلى المدرج المذكور ودخلت، فوجدت أن هناك عدداً كبيراً من البنات يجلسن في المقدمة وقد وضعن قدراً كبيراً من الماكياج ويرتدين فساتين مزركشة، فخرجت على التو ظنّا مني أن هناك «حفلة» وأنني أخطأت المكان. فنماذجي الإدراكية الأمريكية والمصرية (حتى بداية الستينيات) كانت تحدد مجال الرؤية لي، وحسب هذه النماذج فإن الفتيات لا يضعن هذه المساحيق ولا يرتدين مثل هذه الفساتين إلا في الحفلات (كما كان الأمر في جامعة الإسكندرية حين تركتها، وفي الجامعات الأمريكية التي درست فيها). ولكن أحد الطلبة سارع بالخروج من المدرج ليخبرني أن هذه ليست حفلة وإنما محاضرة، وكان عليّ تعديل نموذجي الإدراكي، إذ أدركت أن الفرق بين الحفلة والمحاضرة لم يعد كبيراً كما كان الأمر في الماضي!

ومع هذا هناك توظيف واعٍ للنماذج الإدراكية، كما هو الحال في الإعلانات التليفزيونية، حين يدرك مخرج الإعلان أنه يمكن توظيف كل غرائز الإنسان النبيلة والخسيسة في تسويق السلعة المُعلن عنها، فيربط مثلاً بين أحد أنوع السمن والسعادة الزوجية، وأحد أنواع المياه الغازية أو العطور والجاذبية الجنسية، وعاطفة الأبوة والتليفون المحمول وغير المحمول وهكذا.

وقد يؤدي تحدي النموذج الإدراكي المهيمن إلى مشاعر سلبية، إذ إنه يكشفنا أمام أنفسنا ويُعدِّل من خريطتنا، وهو أمر ليس بالهين. اشتركت في ندة بيت الثقافة Haus der Kulturen في برلين، حضرها د. نصر حامد أبو زيد ود. رضوان السيد ود. أركون وآخرون. وقد دارت حوارات ساخنة بيني وبين الدكتور أركون، إذ كان ينادي بسيادة العلوم الطبيعية ومعاييرها (وكان يتصور أن هذه هي العقلانية بعينها!)، فأخبرته بأن في هذا ضياعًا للإنسان وأن المطلوب هو فصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية، أي أنني أخبرته عن النموذج المهيمن على فكره، وأن فكره ليس فكراً إنسانيًا كما يتصور، فنظر لي بعمق ولم يجب. ثم التفتُّ إلى الحاضرين وذكرت عمانويل كانط وأعضاء مدرسة فرانكفورت بحُسبانهم مدافعين عن ثنائية الإنسان والطبيعة. ثم أضفت أنني كمفكر مسلم أرى نفسي وريثًا حقيقيًا لهما أكثر من دعاة ما بعد الحداثة في الغرب. وكان لقولي هذا وقع سيئ لأنه كشف النماذج المهيمنة والتحيزات الكامنة عند معظم

www.scantopdf.eu

الحاضرين. وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان. ولذا عند مغادرتي القاعة حاولت فتاتان الهجوم عليّ، لولا أن أوقفهما الحرس.

وكنت مرة ألقي محاضرة في جامعة الملك سعود، حضرتها بعض الأستاذات. وكنت قد طورت لتوي نموذجًا تحليليًا يرى أن الحضارة الغربية الحديثة قد بدأت بداية إنسانية هيومانية ولكنها أصبحت معادية للإنسانية، وأنه من ثم يمكن الحديث عن حضارتين غربيتين حديثتين: واحدة متمركزة حول الإنسان والأخرى متمركزة حول المادة. وكانت من بين الحاضرات أستاذة مصرية، قاطعتني فجأة، وأخذت تسبني وبصوت مرتفع، ولمدة تزيد على رُبع ساعة. فاضطر رئيس الجلسة إلى إنهائها، واتصل بي بعد ذلكَ واعتذر عما حدث، ودعاني لإلقاء المحاضرة مرةً أخرى. ثم فوجئت بالأستاذة تتصل بي هي الأخرى، وأخذت تعتذر لي لمدة تزيد عن رُبع ساعة! إذ يبدو أن خريطتها الإدراكية تعرضت للتحدي بغتة، فخلقت عندها حالة من عدم التوازن، فسلكت بطريقة اضطرت أن تعتذر عنها فيما بعد.

والنماذج الإدراكية كامنة في النصوص التي يقرؤها الإنسان أو يكتبها، وفي الظواهر الاجتماعية التي يوجد داخلها والمعايير التي يعيش وفقها، ومهمة الباحث - في تصوري - أن يحاول اكتشافها، وأن يعرف ملامح النموذج المهيمن في أدب هذا الأديب وفكر ذلك المفكر، أو النموذج الكامن وراء سلوك أعضاء هذا المجتمع. وهنا يمكننا أن نتقدم خطوة للأمام ونشير إلى «النماذج التحليلية»، أي النماذج الواعية التي يصوغها الباحث من خلال قراءته للنصوص المختلفة وملاحظته للظواهر المتنوعة ثم يقوم بتفكيك الواقع (أي فك عناصره الأساسية الواحد عن الآخر) وإعادة تركيبه من خلالها بحيث يصبح الواقع (أو النص) مفهومًا بشكل أكبر. وكثيراً ما كنت أذكر لطلبتي أن النموذج التحليلي التفسيري الذي يستخدمه الباحث لا يتضح له تمامًا إلا بعد الانتهاء من كتابة البحث، ولذا فهو يجب ألا يكتب المقدمة إلا بعد الانتهاء من البحث. بل إنه سيجد نفسه، بعد أن يتضح له النموذج التحليلي الكامن في بحثه، مضطرًا لإعادة كتابة البحث مرةً أخرى بعد وضوح الرؤية. هذا باختصار شديد هو منهج استخدام النماذج (بما يتضمن من رفض للموضوعية المطلقة ولفكرة العقل السلبي) الذي أصبح أمراً أساسيًا في منهجي البحثي.

والنماذج كما بيَّنا نتاج إبداعي ذاتي في تفاعله مع الواقع الموضوعي، ولذا فتطبيق

www.scantopdf.eu

النموذج (التحليلي) على الواقع ينجم عنه إثراءٌ للنموذج ذاته ، إذ إنه يتم توسيع نطاقه من خلال الظواهر والمعطيات المادية التي يحاول تفسيرها ، فهي قد تتحداه وتبين عجزه التفسيري، ومن ثم لابد من تعديله بعض الشيء حتى نزيد من مقدرته التفسيرية، أي أن العلاقة بين النموذج والواقع علاقة حلزونية، لابد أن يكون الواحد فيها منفتحًا على الآخر، (كما حدث لي في أول محاضرة لي حين ظننت خطأً أن هناك فرقًا بين الحفلة والمحاضرة). ولكن الأهم من هذا أنه بعد استخدام النماذج يمكن اختبار نتيجة البحث بشكل موضوعي، أي أن استخدام النماذج يفترض وجود علاقة تبادلية (حلزونية) بين الذات والموضوع .

ولم تكن المسألة بهذا الوضوح منذ البداية، ولم تكن مصطلحات المنهج الذي أستخدمه متبلورة، ولكني مع هذا كنت أتحسس طريقي نحوه في دراستي «الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة» (التي كتبتها بالإنجليزية لأول مرة عام ١٩٦٥). وقد أشرت من قبل إلى أن النموذج يأخذ شكل صورة إدراكية متبلورة. والصورة التي استخدمتها في تلك الدراسة هي صورة الإنسان الطبيعي الذي هو بلورة لعدد من الصفات وجدتها لا تختلف كثيراً عن مفهوم الرأسمالية التنافسية للإنسان. وقد استخدمت في هذه الدراسة مصطلح «الأسطورة الحاكمة» (كما سأبين فيما بعد) للإشارة إلى النموذج. ورغم أنني أسقطت هذا المصطلح ، فإنني أجد أنه يبرز سمة هامة للنموذج ، وهي أنه يشبه النموذج بالصورة المجازية. فكلاهما ليس له وجود موضوعي مادي ، وإنما هما أداة إدراكية تحليلية مفيدة بمقدار ما يسهمان في تنظيم الواقع المادي المكون من معطيات متناثرة. وكثيراً ما كنت أحذر طلبتي من تصور أن النموذج «شيء» حقيقي وليس مجرد أداة إدراكية تحليلية.

ولكن من أكثر المحاولات درامية وتبلوراً (قبل اكتمال المصطلح والمفهوم والأداة التحليلية)، ما ورد في كتاب **الفردوس الأرضي**. فقد تناولت عدة عناصر في الواقع وحاولت أن أرى العلاقة بينها بحُسبانها تعبيراً عن نموذجين مختلفين : وجدان البساطة والطبيعة والعداء للتاريخ في مقابل وجدان التركيب التاريخي والإنساني. (وهي نفس النماذج التحليلية التي كنت قد استخدمتها في رسالتي للدكتوراه ثم في كتاب نهاية التاريخ، وهي تعبير عن نفس ثنائية الإنسان والطبيعة التي تتبدى في معظم كتاباتي):

«حينما يتناول المصري طعامه ، فهو يتناول وجبة ساهمت آلاف السنين من التاريخ

www.scantopdf.eu

المصري في طهوها. ولهذا السبب، نحن لا نقدم الكوسة المسلوقة (والعياذ بالله) إلا للمرضى، أما الأصحاء فهم يأكلونها إما بالبشملة، أو محشية بالأرز أو اللحمة المفرومة أو كليهما، أو قد تقدم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدي، وهذا أضعف الإيمان. على العكس من هذا، حينما يقرر المواطن الأمريكي تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية في الولايات المتحدة) فزوجته عادةً ما تقدم له كمية لا بأس بها من البطاطس المسلوقة أو المقلية، مع شريحة كبيرة من اللحم المشوي على الفحم (على طريقة آبائنا الأوائل)، أو المطبوخ على نيران البوتاجاز (دون الإخلال بالبنية البدائية لعملية الطهي). فإذا أراد الأمريكي التنويع، فإنه قد يأكل الهامبورجر، وهو نوع من اللحم المفروم المحمر والمخلوط بالحد الأدنى من الخضراوات والتوابل، وهو عادةً يؤكل إما بالخبز وإما مع البطاطس الحتمية. وحينما يسأم الأمريكي رتابة حياته الغذائية ويفكر في تناول طعام جيد له مذاق خاص فهو عادةً يتناول وجبة أجنبية (صينية أو فرنسية) نتاج تاريخ بلد آخر. ولذلك، فمن أيسر الأمور تناول طعام أجنبي، بل وشراء مواده الخام في أي مدينة أمريكية.

«وأنا لا أبحث هنا عما إذا كان الأكل المصري أفيَد أو أصح من الأكل الأمريكي أم لا، وإنما أشير إلى طريقة «صنع» هذا الأكل وإلى أن الطريقة المصرية في الطهو أكثر تركيباً من الطريقة الأمريكية، وهذا ينطبق حتى على الفول المدمس الشهير، الذي يترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون.

«وإذا ما نظرنا إلى علاقة الرجل بالمرأة وبالأسرة في المجتمعين المصري والأمريكي للاحظنا نفس الاختلاف. فالرجل الأمريكي حينما ينظر إلى امرأة، فإنه يرى امرأة وحسب على قدر ما من الذكاء والحسن. فإذا أراد التعرف عليها فلا داعي للمؤامرات والمناورات والتلميحات. وإذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها - إن هي وافقت - دون ضجيج أو صخب (ويطلقها بالبساطة نفسها). وهو عادةً ما يذكر هذا الأمر لأسرته (الأب والأم والإخوة والأخوات، فالأعمام والأخوال وأولادهم ليسوا من الأسرة). وقد يدعوهم لحفل زفافه ولكن هذا لا يتم إلا من باب العلم بالشيء وحسب، لأنه لا يبغي رضاهم ولا يخشى سخطهم، فعلاقته بأسرته قد انقطعت بعد بلوغه السادسة عشرة واقتصرت على المقابلات في أعياد الكريسماس، ثم تظل تضمر إلى أن تظل قاصرة على تبادل بطاقات المعايدة الخالية من أي محتوى إنساني شخصي. فالرسالة المكتوبة على

www.scantopdf.eu

البطاقة عادةً ما تكون مطبوعة ، بمعنى أنها ليست رسالة شخصية تعبر عن علاقة خاصة وإنما هي أقرب إلى التقرير العائلي العاطفي . لقد أصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريراً عاطفيّاً عائليّاً من هذا النوع أرسله لي أحد أصدقائي يخبرني فيه (ويخبر مائة شخص آخر) بأنه وزوجته وأولاده يرفلون في حلل السعادة وأنهم يخصونني بالسلام! إن علاقات الأمريكي الاجتماعية من البساطة إلى درجة أنه يمكنه أن يكتفي بالتقرير بدلاً من الخطاب الخاص التقليدي . وكم كنت أصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الأمريكان «المرنين» وهم يودعون أمهاتهم وآباءهم في بيوت العجزة ، وهي بيوت شيدت لتسد حاجة نشأت في المجتمع الأمريكي نتيجة لتفكك الأسرة الأمريكية . فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين فأنت لا تقطن مع ابن من أبنائك ، كما أنك لا يمكنك أن تعيش في منزل بمفردك لأنه سيكون مكلفًا وكبيراً ولذا تنتقل إلى أحد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحة العصرية من سرائر نظيفة إلى أجهزة تكييف هواء إلى أسطوانات إلى حجرات فسيحة تجلس في إحداها لتنظر إلى التليفزيون بقية أيامك الأرضية . (في دراسة لاحقة قارنت بين بيوت المسنين ومعسكرات الاعتقال النازية . فكلاهما يضم بشراً يرى المجتمع أنهم غير منتجين أو «أفواه تستهلك ولا تنتج» (بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters) . ولكن بينما يتم القضاء على المسنين في الغرب بالتبريد (التكييف) يتم إبادة نزلاء معسكرات الاعتقال النازية بالتسخين (أفران الغاز) .

«أما المصري فإنه حينما ينظر إلى امرأة يرى امرأة ويرى طبقة اجتماعية وتاريخًا طويلاً ، فإذا قرر التعرف على المرأة/ الطبقة فيجب عليه أن يعرف خلفيتها العائلية لأن هذا سيحدد تكتيك وإستراتيجية الهجوم . وإن قرر الزواج فالزواج لا يتم على سنة الله ورسوله وحسب بل أيضا حسب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شبكة ومهر ومقابلات بين الأسر للتعارف والتباهي . وهذا المصري بعد تزوجه يُبقي على علاقته بأمه وأبيه وأخيه وبأم زوجته وأبيها وأخيها . وعلى الزوج والزوجة أن يقسما وقتيهما بالعدل والقسطاط في زيارة الأقارب – أقاربها وأقاربه ، والويل كل الويل لمن لا يُبقي الموازين الدولية الدقيقة . فإن أراد المصري أن يُطلّق – لا قدر الله – فإنه يكتشف أن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله ، وأن المجتمع لن يتركه وشأنه قبل أو بعد الطلاق ، فرسل الصلح وفاعلو الخير ولله الحمد كثيرون . وحينما تهرم الأم أو الأب ، فإننا لا نرسلهما إلى أي فردوس أرضي (فهذه المؤسسة العلمية المعروفة باسم «بيوت العجزة» غير معروفة بعد في مجتمعنا

www.scantopdf.eu

المتخلف)، بل على المصري أن يبقي على علاقته بأبويه، يرسل لهما النقود ويحارب ضد زوجته التي ترى أنه يبالغ بعض الشيء في كرمه، كما تحارب هي ضده حتى تبقي على علاقتها الوثيقة مع أمها (أي حماته المصرية الشهيرة) التي تنغص عليه عيشته دائماً. إن الفرد المصري لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيم الدينية، فوجوده وجود اجتماعي تاريخي بالدرجة الأولى، ووجود فردي بالدرجة الثانية.

«ولعل هذا البعد التاريخي للوعي المصري هو ما يفسر ظاهرة غرام السيدات المصريات الزائد بالماكياج (بغض النظر عن انتمائهن الطبقي). فالماكياج هو محاولة للبعد عن البساطة الأولى، إنه ارتداء لقناع الفن فوق وجه الطبيعة، وهو ضرب من الطقوس الاجتماعية التي تحول الظواهر البيولوجية إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وإنسانية. أما السيدات الأمريكيات فنادراً ما يضعن هذه العطور والمساحيق الساحرة بهذا السخاء. وإن وضعنها فذلك لا يتم إلا في مناسبات خاصة جداً (وليس لمجرد الذهاب لحضور المحاضرات في الجامعة مثلاً). ولاحظت في زيارتي الأخيرة لأمريكا أن ثمة ضيقاً شديداً بالثياب من أي نوع، ورأيت في الطرقات شباناً وشابات يرتدون بالفعل الحد الأدنى من الملابس (الأمر الذي يذكرنا مرة أخرى بآبائنا الأوائل). فالتخفيف من الثياب في أمريكا ليس الغرض منه إثارة الفتنة (كما هو الحال في بعض الحضارات) وإنما الغرض منه هو التبسيط، ولذلك فالمرء يفزع من منظر الفتيان والفتيات منكوشي الشعر المرتدين الهلاهيل والخرق.

«وبَحْثُ المواطن الأمريكي العادي عن البساطة الأولى للطبيعة قبل تحولنا إلى مخلوقات اجتماعية تاريخية يتضح أيضاً في كرهه العميق للمدينة وزحامها. وحينما كنت أذكر لأصدقائي أنني لا يمكنني أن أحيا إلا في مدينة نيويورك أو على الأقل بالقرب منها كانوا لا يفهمون ما أعني على درجة الدقة. فالحياة المثلى بالنسبة للأمريكي العادي هي الحياة بجوار الطبيعة أو «في الريف» بهدوئه الفردوسي علي حد قولهم. وعلى الرغم من أن هذا الأمريكي العادي يعيش عادةً في منزل من دورين تحيطه حديقة صغيرة محاطة بالسياج والأشجار، وعلى الرغم من أن مراكز التسوّق تبعد عادةً عن مناطق السكنى بضعة كيلو مترات (وهذا هو الجنون بعينه في نظري)، فإن الأمريكي العادي دائم التململ والشكوى من الزحام، لأنه يود أن يحيا بمفرده إن استطاع، مثل إنسان روسو الذي يعيش على الفطرة والطبيعة دون أن تفسده الحضارة والمدنية. وقد يُقال إن الأمريكي العادي يود

www.scantopdf.eu

أن يحيا على الفطرة على أن تكون معه عربتان وثلاجة وغسالة أتوماتيكية وجهاز تسجيل وفتاحة علب كهربائية، وفي هذا بعد عن الطبيعة. ولكن دخول هذه الأشياء لا يفسد بساطة حياته، فالتاريخ والمجتمع، وليس الآلات، هما اللذان يأتياننا بالخبرة التي تفسد علينا فردوس البراءة الأولى.

«وإذا قارنا سلوك الأمريكي بسلوك المصري في هذا المضمار للاحظنا مرة أخرى الفروق الواضحة، فطموح الإنسان المصري يتلخص في أن يقطن بالقرب من أهله وعشيرته وأسرته، ويا حبذا لو كان الجميع في القاهرة في قلب العروبة النابض!».

وبرغم أن هذه كانت محاولة جادة (بطريقة كوميدية) لتقديم دراسة مقارنة للنموذجين الإدراكيين أو للرؤيتين المصرية والأمريكية (كما تتبديان في الطبخ والماكياج والملابس والعلاقات العائلية)، فإن مدير الجامعة (وكان صديقًا لي) استدعاني ليعنفني بسبب هذه «المسخرة» غير الأكاديمية. وعبثًا حاولت أن أقنعه بأنه ليس من الضروري أن تكون الأمور الأكاديمية عابسة الوجه وإنما يمكن أن يكون دمها خفيفًا. ولكن صديقي السيد المدير كان يرى غير ذلك! كما أضاف قائلاً إنه يعرف كثيرًا من الأمريكيين الذين لا يتصفون بهذه السمات. فوافقته بطبيعة الحال، وحاولت أن أبيّن له أن دراستي إنما هي دراسة للنموذج المهيمن (دون استخدام المصطلح) وهي نتيجة لدراسة النصوص الفكرية الأساسية الغربية ابتداءً من هوبز Hobbes ومكيافللي Machiavelli وانتهاءً بداروين وماركس وفرويد، ونتيجة ملاحظة لمئات المواقف، وأنني حينما أطرح هذا النموذج بحُسبانه نموذجًا تفسيريًا، فهذا لا يعني أن ثمة تطابقًا بين النموذج والواقع، فهناك نماذج فرعية كثيرة مناقضة للنموذج المهيمن متصارعة معه، ويحملها أناس حقيقيون، ولكنني حينما أقدم صورة نماذجية لابد أن أتغاضى عن بعض هذه التفاصيل لأركز على النمطي والمتواتر، ولكنني، مع هذا، أظل واعيًا تمام الوعي بأن النموذج الذي أطرحه ليس هو الواقع، برغم أن هذا النموذج يحاول تفسيره. ولتوضيح فكرتي أقول دائمًا إنني «أرفض أمريكا (النموذج) ولكني أحب الأمريكيين (الأفراد المتعينين)». فكان رئيس الجامعة يكتفي بهز رأسه، ولكنه كان يبدو عليه أنه غير موافق.

وقد استخدمت فيما بعد النماذج التحليلية (النموذج كصورة كامنة) في تحليلي لموقف المستوطنين من الانتفاضة. فأخذت صورة «الحمائم والصقور» التي تستخدم في تصنيف المواقف السياسية بحُسبانها تعبيرًا عن نقطتين متطرفتين من الاعتدال والتشدد، وبيّنت أن

www.scantopdf.eu

هذه طريقة متعسفة للغاية في عملية الرصد تتسم بالتبسيط والاختزالية. واقترحت توسيع النموذج التحليلي بما يتفق وتركيبيةَ الظاهرة الصهيونية بأن تضاف «طيور إدراكية أخرى» (أي افتراض وجود نماذج إدراكية أكثر تنوعًا من الحمائم والصقور تهيمن على الوجدان الإسرائيلي) مثل الدجاج والنعام (وتنويعات عليها) :

«والحمائم كما يقال مسالمة دائمًا ، والصقور يُفترض فيها أنها عدوانية شرسة. أما الدجاج فهو متخصص في الهرب ، ويجيد النعام فن دفن رأسه في الرمال. والنعام هو أكثر أنواع الطيور الإدراكية انتشارًا في المستوطن الصهيوني وبخاصة بعد الانتفاضة ، وإن كنا لا نعدم عددًا كبيرًا من الدجاج الذي يتحدث كالصقور ، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الشائعات) ، وإن كان هناك عدد كبير من الصقور التي تتحدث كالحمائم. ويقول الدكتور قدري حفني : إن اليهود الشرقيين مثلاً هم حمائم تود أن تكون صقورًا لتثبت إخلاصها للنخبة الحاكمة الإشكنازية. وقد أسقط كثير من المعلقين السياسيين كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا، لأن نموذجهم المعرفي (التحليلي) قاصر ساذج يحوي مقولتين اثنتين ، ولذا لم نر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التي تنتظر من يكتشفها ويرصدها» .

والعبارة الأخيرة تشير إلى إحدى الصفات المهمة للنموذج ، وهي أنه يساعد على الرؤية المتعمقة المركبة كلما ازداد تركيبية، وكلما اتسع نطاقه ليضم معلومات وظواهر كانت مهملة أو مهمشة في الماضي. خذ على سبيل المثال الإمبريالية الغربية ، ينظر إليها الكثيرون بحُسبانها «انحرافًا» عن مسار الحضارة الغربية الليبرالي الديموقراطي الإنساني. . . إلخ ، ومن ثم يستبعدون كمًا هائلاً من المعلومات. إن غيَّرنا النموذج بأن نزيده تركيبية وبأن نوسع نطاقه، ورأينا الإمبريالية بحُسبانها جزءًا عضويًا من هذه الحضارة وتعبيرًا متعينًا عن شيء أساسي وجوهري فيها، فإن عددًا كبيرًا من المعلومات الجديدة سيدخل في نطاق النموذج التحليلي، وتصبح ذات أهمية محورية تفسيرية. سنكتشف – على سبيل المثال – أن إبادة الشعوب الأخرى ليست مسألة انحراف، وإنما نمط عام متكرر : ملايين الهنود في الأمريكتين – السكان الأصليون في أستراليا – سكان الخانات التركية المجاورة لروسيا على يد الدولة القيصرية – إلقاء القنبلة الذرية على اليابان (دون حاجة عسكرية ماسة لذلك) – الفلسطينيون (الطرد والإبادة) – الجزائريون – شعب فيتنام. كما سنكتشف مثلاً أن قفزة الولايات المتحدة الصناعية في الثلاثينيات من القرن الماضي تعود

www.scantopdf.eu

إلى حدٍّ كبير إلى العمالة السوداء الرخيصة (التي قدمها ملايين العبيد السود)، وأن مجموع ما سلبته إنجلترا من الهند إبان ثورتها الصناعية يفوق كل ما أنتجته في تلك الفترة. إن حساباتنا ستكون مختلفة، والمعلومات التي نبحث عنها ستكون مختلفة وستظهر لنا بلاهة الحديث عن «التقدم الغربي» بحُسبانه نتيجة عناصر خاصة بالمجتمعات الغربية.

وقل نفس الشيء عن النماذج التي يشيعها الصهاينة. فقد قبلناها بسذاجة شديدة، فحجبت عنا رؤية كثير من جوانب الواقع. ولنضرب على سبيل المثال النموذج الصهيوني التفسيري لظاهرة مثل الدياسبورا أو المنفى. يذهب الصهاينة إلى أن اليهود كانوا يعيشون في وطنهم القومي، فلسطين أو يهودا... إلخ، ثم جاء القائد الروماني تيتوس فحاصر القدس وهزم اليهود وهدم الهيكل، وبعدها بدأ نفي اليهود وتشتتهم. هذا هو النموذج السائد، وهذه هي الرواية الصهيونية السائدة، التي يقبلها الجميع تقريبًا، والذي يوجه أنظارنا إلى مجموعة من المعلومات ويستبعد غيرها. فيبينون أن عدد اليهود بعد سقوط الهيكل (سنة ٧٠ ميلادية) قد أصبح صغيرًا بالفعل، مما يدل على تشتتهم القسري! ولكن تغيير النموذج يؤدي إلى «اكتشاف» مجموعة أخرى من المعلومات مغايرة تمامًا للمعلومات التي يسوقها الصهاينة. وقد بدأ الشك في النموذج التفسيري الصهيوني يتسلل إلى نفسي حينما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم لم تهاجر إلى «وطنها القومي» المزعوم. فعدت إلى التاريخ لأختبر مدى مصداقية النموذج الصهيوني بالنسبة لتفسير الماضي. فاكتشفت أنه قبل هدم الهيكل، كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عدد اليهود داخلها بعدة أضعاف. فاليهود لم «ينفوا» ولم «يشتتوا» قسرًا وإنما انتشروا وحسب، شأنهم في هذا شأن كثير من الجماعات البشرية الأخرى، وأن هدم الهيكل لم يكن سوى عنصر مساعد لعملية ديموجرافية بدأت قبل وقوع ذلك الحدث. أما بخصوص تيتوس فلاحظت أن الحرب التي خاضها لم تكن حربًا للرومان ضد اليهود، بل حربًا للرومان ضد فريق من اليهود، إذ إنه كان هناك إلى جوار الجيش الروماني المحاصر للقدس، جيش يهودي بقيادة «ملك اليهود» أجريبا الثاني، بل والأدهى من هذا نجد أن برنيكي، أخت أجريبا الثاني، كانت عشيقة تيتوس، وكان ينوي الزواج منها. كما لاحظت أنه عبر التاريخ آثرت الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الاستقرار في أوطانهم خارج فلسطين، وهو النمط الذي استمر حتى الوقت الحاضر. إن تقويض النموذج السائد ومحاولة نحت نموذج تفسيري جديد، قد أعطى مركزية لبعض المعلومات

www.scantopdf.eu

التي آثر الصهاينة إما إخفاءها وإما تجاهلها تمامًا ، وقوّض من صلابة بعض المعلومات «الصلبة» الأخرى .

وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى من تاريخ الصهيونية وغيرها تبين أن النموذج التحليلي المستخدم هو الذي يقرر ما هو المهم وما هو الهامشي من المعلومات ، وما يستحق الإبقاء وما يتم حذفه . وبهذا المعنى يمكن القول بأن النموذج «يولّد» معلومات وحقائق ، وهو استخدام مجازي لكلمة «يولّد» ، فالحقائق موجودة في الواقع وفي بطون الكتب لمن يريد «اكتشافها» .

وقد حاولت تطبيق منهج النماذج التحليلية في محاضراتي وما أدرّس من مقررات ، وتركت المنهج التاريخي (التعاقبي) ودراسة الشعراء والنقاد كلٌ على حدة ، الذي يدفع الباحث نحو التراكم المعلوماتي والموضوعية المتلقية ، وأعدت صياغة المقررات التي أدرّسها بحيث أصبحت أدرّس نفس المادة ولكن من خلال موضوعات أساسية كامنة وإشكاليات متزامنة متواترة (نماذج تحليلية) . فالنقد الرومانسي كنت أدرّسه على سبيل المثال من خلال : إشكالية اللغة - إشكالية الذات - إشكالية الحدود الجمالية ، ثم أدرس هذه الإشكاليات في أعمال كل النقاد (وأشير إلى أن لها ما يماثلها في النقد العربي الحديث) . وقد فعلت نفس الشيء مع الشعر الرومانسي . فكنت أبدأ بدراسة «الملاح القديم» بحُسبانها القصيدة الرومانسية النماذجية التي تضم كل الموضوعات الأساسية الكامنة ، والتي تتبدى في معظم القصائد الرومانتيكية ، مثل : الانتقال من الخبرة إلى البراءة - مشكلة الشر - إشكالية الذات والموضوع - إشكالية المدينة . ثم أدرس النصوص الرومانسية من خلال هذه الموضوعات والإشكاليات . وكنت أضيف أحيانًا بضعة نصوص عربية تتبدى فيها نفس الموضوعات (حتى لا تكون دراسة الأدب الإنجليزي شيئًا بعيداً يحتفظ به الطلاب في قسم خاص في ذهنهم) . وفوجئت بارتفاع الحاسة النقدية عند الطلبة والطالبات ، وارتفاع مقدرتهم على الربط والتجريد والوصول إلى «الحقيقة» متجاوزين الحقائق . فقد وجدوا أن المادة التي يدرسونها أصبحت ممتعة ، وأصبح لها صلة بحياتهم الحقيقية ، وليس مجرد «أدب إنجليزي» يوجد في قسم مستقل من عقولهم .

ومن أطرف الوقائع في هذا المضمار ، أنني كنت أعرف أنني سأنتهي من موسوعة ١٩٧٥ في منتصف العام ، وأنني سألحق بزوجتي في الولايات المتحدة في مارس . وبرغم

www.scantopdf.eu

حبي لتدريس الأدب، فإنني، من قبيل احترام الطالبات، طلبت من القسم أن يوكل إليّ تدريس مواد مثل الترجمة والمقال حتى إذا ما توقفت عن التدريس وحل أحد الأساتذة محلي، فلن يسبب هذا اضطراباً كبيراً للطالبات، إذ إن هذه مقررات أولية تعتمد على التدريب. ولكن أحد الأساتذة - رحمه الله - كان يهوى الاصطدام، فاعترض على ذلك، فما كان من الدكتورة لطيفة الزيات، رئيسة القسم، إلا أن أسندت إليّ المقررات التي أحبها، وكان من بينها الشعر الرومانسي بطبيعة الحال. وقمت بتدريسه بطريقتي، أي من خلال موضوعات (نماذج) وليس من خلال السرد التاريخي.

وحينما ذهبت إلى الولايات المتحدة، كان هذا المقرر من نصيب الأستاذ المذكور. ولكنه كان يقوم بالتدريس لمجموعة من الطالبات تم تدريبهن على قراءة النصوص الأدبية قراءة جديدة مبنية على الربط بين تفاصيل العمل، ثم تجريد الموضوعات الأساسية الكامنة ورصد كيفية تبديها في بنية القصيدة. وكان صاحبنا معداً بمدفعيته الثقيلة المعلوماتية عن حياة الشاعر فلان وخلفية الشاعر علان التاريخية، والمناسبة التي كتبت فيها القصيدة، كما أنه بطبيعة الحال كان يردد ما تقوله بعض المراجع الغربية من أن الشعر الرومانسي هو عودة للطبيعة، وهي صيغة لفظية جاهزة يستخدمها كثير من الأساتذة يصفون بها كل القصائد الرومانسية دون اكتراث بخصوصية بنيتها وصورها ولغتها (أي دون اكتراث بالنموذج الكامن فيها). وكان صاحبنا يسأل الطالبات عن قصيدة ما، فكنّ يعطينه إجابة غير متوقعة من جانبه، فكان يضطرب، وخاصةً أن كثيراً من الطالبات كن يجدن أن نمط (أو نموذج) الانتقال من البراءة إلى الخبرة الذي يتكرر في الشعر الرومانسي هو نمط له دلالة إنسانية عميقة، وتصادف أن عدداً كبيراً منهن استخدمنه في تحليل القصائد. وفي إحدى المرات سمع الأستاذ المذكور عبارة «الانتقال من البراءة إلى الخبرة»، وكان قد طفح به الكيل، فألقى بالكتاب على الأرض وتوعد كل من تذكر هذه العبارة بالويل والثبور!

وحينما انتقلت إلى السعودية للتدريس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود طبّقت نفس المنهج. واستخدمت نموذج التجاوز (والكمون) كمعيار أساسي لتصنيف القصص القصيرة التي أدرسها مع الطلبة، وبينت أن القصص التي يحاول أبطالها أو الشخصيات الأساسية فيها أن تتجاوز واقعها تتسم بقدر عال من التركيب، أما الأعمال التي تحاول إنكار مقدرة الإنسان على التجاوز فشخصياتها مسطحة وحبكتها بسيطة (وقد قمت بترجمة القصص القصيرة موضع الدراسة وأنوي نشرها في كتاب مع

www.scantopdf.eu

دراسة نقدية طويلة توضح هذه الفكرة). وحينما درست مع الطلبة شعر النصف الأول من القرن الثامن عشر (الشعر النيو كلاسيكي) درسته معهم من خلال موضوع المضمون الأخلاقي للهجاء وإشكالية مفهوم البطولة في مجتمع تراجعت فيه البطولة بعد ظهور العلم وبعد انتهاء عصر الفروسية، وهي موضوعات وإشكاليات لها ما يقابلها في تجربتهم الحضارية.

وحدث أنني عُيِّنت رئيسًا للجنة الدراسات العليا حينما كنت أعمل في السعودية. وكانت مهمة هذه اللجنة هي وضع الخطوط الرئيسية لبرنامج الماجستير هناك. واقترحت أن تكون المقررات في السنة التمهيدية تدور حول موضوعات وإشكاليات (أي نماذج إدراكية تحليلية). ونشبت حرب ضروس بيني وبين كثير من الأساتذة (برغم مساندة رئيس القسم الدكتور عزت خطاب لي). فكل أستاذ يود تدريس المادة التي يعرفها وبالطريقة التي يعرفها، أي الطريقة السردية التاريخية المألوفة. وكان أحدهم يتصور أنه يعرف أعمال الشاعر الإنجليزي جيفري تشوسر تمام المعرفة، ولذا كان يصر على أن يكون هناك مقرر إجباري في ذلك الموضوع. وحيث إنني كنت مؤمنًا بطريقتي (نتيجةً لاقتناعي النظري وتجربتي العملية) فقد انبريت للدفاع عنها. ولكن هيهات، فبيروقراطية الأساتذة (وكان غالبيتهم من الفلسطينيين والمصريين) كانت صلبة في غاية الصلابة ورجعية مغرقة في الرجعية. وفي النهاية نجحت في فرض مقرر تمهيدي واحد يدور حول موضوعات، ولكني سمعت أنه أُلغي بعد رحيلي عن السعودية. (لا يختلف هذا عن اقتراحي بإنشاء كلية للدراسات العليا في جامعة عين شمس يكون لها مكتبة محترمة، وتضم أعضاء هيئة التدريس من ذوي الخبرات حتى يمكن تكثيف ما عندنا من إمكانات ضعيفة. ولكن الاقتراح لم يُنفَّذ لأن كل كلية وكل قسم يفضِّل أن يكون له «استقلاله» الخاص (أي بيروقراطيته الخاصة) وبرنامجه الخاص للماجستير).

أذكر مرة أنني كنت في المغرب وكانت سكرتيرة أحد أصدقائي (خديجة) تصاحبني لشراء ما أريد من أشياء تراثية (والمغرب غنية بها وأنا مغرم بها). وسألتها عن تخصصها، فقالت الأدب الإنجليزي، فأخبرتها بأنني أستاذ أدب إنجليزي أيضًا. وحينما طلبت منها أن تخبرني بالنصوص التي درستها، وجدتها قليلة للغاية مقارنةً بما ندرس نحن في القاهرة. ومع هذا وجدتها تتحدث بطريقة تدل على أنها متملكة لناصية الخطاب الأدبي والنقدي وبرباطه جأش غير عادية. فأعجبت بثقافتها، برغم قلة النصوص التي درستها.

www.scantopdf.eu

فأخبرتني بأنها درست في كلية صغيرة ، لا يوجد فيها عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس. ولتخطي هذه الصعوبة قام الأساتذة بتدريس النصوص من خلال إشكاليات وموضوعات، وأن مقدراتها النقدية والثقافية هي نتاج هذه الطريقة في التدريس.

وقد لاحظت أن النموذج كأداة تحليلية ، يكاد يكون خاليًا من الزمان ، فهو يتجاوز أحداث التاريخ ليصل إلى النمط المتواتر الكامن فيها والذي يجمع بينها. كما أن مقدرة النموذج على رصد الحركة ضعيفة ، إذ إنه ، مرة أخرى ، يحاول الوصول إلى النمط وإلى اللحظة التي يتبدى فيها النموذج. وحتى أسد هذا النقص قررت تطوير **فكرة المتتالية النماذجية**، وهي مثل النموذج رؤية تصورية يجردها عقل الإنسان من الوقائع والظواهر. ولكن المتتالية ترصد الظواهر لا في سكونها وإنما في نموها وتطورها عبر حلقات مختلفة، فهي ترصد البعد التاريخي والبعد الحركي. فترى الواقع لا كلحظة ساكنة وإنما كحلقة في سلسلة آخذة في التحقق التدريجي.

ولعل من أهم الأسباب التي ساعدتني على تطوير فكرة المتتالية النماذجية إقامتي خلال فترتين منفصلتين في الولايات المتحدة (١٩٦٣/ ١٩٦٩ - ١٩٧٥/ ١٩٧٩). كان الجو الثقافي والأخلاقي العام يختلف في الأولى عنه في الثانية ، بل وتنقسم الفترة الأولى إلى قسمين : قبل عام ١٩٦٥ وبعده. فالولايات المتحدة في النصف الأول من الستينيات كانت محافظة بشكل خانق حتى عام ١٩٦٥ ، ثم بدأت حركة اليسار الجديد وحركة الجنس الحر ، أو الجنس بلا ضوابط (بالإنجليزية : فري لاف موفمنت Free love movement)، وصاحبها قدر من التفكك بدأ يتزايد بسرعة تفوق الوصف. فعلى سبيل المثال، كنا نستضيف بعض الطالبات الأجنبيات في منزلنا في الأعياد باعتبار أنني وزوجتي كنا أكبر الطلبة الأجانب سنًا، فكان علينا، قبل عام ١٩٦٥ ، أن نوقع على أوراق نتعهد فيها بإعادتهن إلى المدينة الجامعية قبل الساعة العاشرة. وحينما عدت في السبعينيات، أصبح هناك بيوت مختلطة للطلبة والطالبات. كما أن الشذوذ الجنسي الذي كان «عيبًا» في الستينيات (أو يوجد في منطقة رمادية)، أصبح مقبولاً تمامًا في السبعينيات. وحينما أعود الآن للولايات المتحدة، أجد أنه من قلة الحياء أن تذكر هذا الموضوع ، فما بالك بتوجيه النقد (إذ أصبح الجميع نسبيين منفتحين). ولم تعد القضية هي التسامح مع الشذوذ الجنسي، وإنما «تطبيعه» بحيث يصبح أمرًا طبيعيًا تمامًا مثل الجنس العادي.

www.scantopdf.eu

وحينما أذهب إلى الولايات المتحدة تكون نقطتي المرجعية الصامتة، شئت أم أبيت، هي مصر. وحينما تركت بلدي في الستينيات، كانت تحكمها المعايير الأخلاقية، كما أن «العلم» كان محترمًا، ولذا كانت الأبواب تفتح حينما يعلم الناس أن الشخص الفلاني «دكتور». كما أن النظام الاشتراكي كان يضمن للناس الحد الأدنى من الرزق والكرامة. فكنت دائم المقارنة بين الولايات المتحدة ومصر التي تركتها. وكنت أخبر الأمريكيين أن مصر قد تكون بلدًا فقيرًا إلا أن الإنسان لا يمكن أن يفصل من عمله، على سبيل المثال، إلا إذا ارتكب كبيرة. وثمن السلع الغذائية الأساسية ثابت لا يؤثر فيه التضخم، كما أن إيجار المسكن زهيد للغاية. وحينما يجلس المواطن أمام شاشة التليفزيون ليشاهد فيلمًا، فإنه يشاهد فيلمًا وحسب، لا تقاطعه الإعلانات التي تبتزه وتجعل زمانه الخاص جزءًا من السوق، وكأن السوق هو مصير الإنسان وقدره.

بل إن الدولة كانت تجعل الثقافة في متناول الجميع بالفعل. الكتب يشتريها من يريد، والمسارح رخيصة للغاية، والموسيقى العربية يمكن الحصول على تذكرة لحضور حفلاتها ببضعة قروش. (أذكر أنني حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ فوجئت بأن أحد العمال الذين كانوا يعملون في محل والدي يتحدث عن أنه ينوي الذهاب للمسرح القومي لمشاهدة مسرحية ماكبث لشكسبير).

حينما أذهب للولايات المتحدة الآن، فإنني لا يمكن أن أتحدث عن الأشياء نفسها. فنقطتي المرجعية الصامتة قد تغيَّرت، وأصبحت السوق الحرة هي الآلية الكبرى في عالم الاقتصاد والأخلاق. ولذا فالثقافة أصبحت شيئًا باهظ التكاليف، لا يقدر عليه إلا من عنده فائض كبير من الأموال. والطعام أصبح مكلفًا للغاية. (حتى ساندوتش الفول الذي كان في متناول الجميع أصبح هو الآخر مكلفًا). وحينما يجلس المواطن الآن أمام التليفزيون المصري فإنه يقذفه بالإعلانات التي تحول زمانه الخاص إلى سوق يباع فيها كل شيء ويُشترى.

تعلمت من كل هذا أن ما يحدث في بلد ما قد يحدث في بلد آخر إذا ما توافرت الظروف، حتى ولو لم يحدث في لحظة الرصد المباشر. إذ إنه يمكن أن يحدث فيما بعد، لأن البلد المذكور لا يزال يمر بالحلقات الأولى من المتتالية النماذجية، التي تليها الحلقات الأخرى. وإن الحاضر قد يكون مختلفًا عن الماضي، ولكنه في الوقت نفسه ثمرة من

www.scantopdf.eu

ثمراته، إن نحن أمعنّا النظر. وفي إطار هذا التصور أصبح من الحتمي أن أنظر إلى مصر لا بحُسبانها مثلاً (ساكنًا) لهذه أو تلك الصفة، وإنما بحُسبانها لحظة في متتالية نماذجية تتابع حلقاتها، بحيث أستخدم ما أرى في الغرب على تقدير أنه من المحتمل أن يتكرر حدوثه عندنا هنا، فنفس المقدمات والظروف الاجتماعية قد تؤدي إلى نفس النتائج أو شيء قريب منها، كما أنها ولا شك تصلح كمؤشر على ما يمكن أن يحدث في المستقبل.

ويحضرني في هذا ما قاله سيرج لاتوش في كتابه **تغريب العالم** فالغرب بالنسبة له ليس بقعة جغرافية ولا حتى لحظة زمنية، وإنما هو متتالية نماذجية أخذت تتطور وتأخذ أشكالاً مختلفة إلى أن أصبحت كالآلة التي لا تكترث كثيرًا بالإنسان، تدور لتفرم الجميع حتى صاحبها، منفصلة عن الزمان والمكان الغربيين، ويمكن أن تمسك بتلابيب أي مكان وزمان. من كان يتصور في الماضي أن ما يحدث الآن في مصر، كان يمكن أن يحدث؟ مَنْ كان يتصور أن تصبح النقود هي المعيار الذي يجبُّ غيره من المعايير، وأن مسألة «العلم» هذه تصبح مصدر سخرية؟ حينما عدت أنا وزوجتي من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، كان بعض سائقي التاكسي يرفضون تقاضي الأجر منا حينما يعرفون أننا أساتذة جامعيون عُدنا لبلدنا لنساهم في بنائه وإعماره، فهل يمكن أن نتخيَّل حدوث مثل هذا في الوقت الحاضر؟ باختصار شديد، أنا لا أرى أن الشرق شرق والغرب غرب، أو أن الشرق روحي والغرب مادي، إلى آخر هذه المقولات الجاهزة، وإنما أرى أن هناك متتالية نماذجية إن أمسكت بتلابيب حضارة ما فهي تأخذ في التحقق (إلا إذا تصدى لها الإنسان بوعي إنساني وأخلاقي). وتظهر فكرة المتتالية النماذجية كآلة تحليلية أساسية في معظم كتاباتي. ولكنه يظهر، على وجه الخصوص، في تحليلي للحلولية والعلمانية الشاملة.

وعلى عكس المتتالية النماذجية، طورت مفهوم «اللحظة النماذجية». وينطلق هذا المفهوم من الإيمان بأن ثمة اختلافًا جوهريًا بين الواقع والنموذج المهيمن، وأن النموذج لا يمكن أن يتحقق كليةً في الواقع. ولكن هناك لحظات نادرة يقترب فيها النموذج من حالة التحقق الكامل. وهذه اللحظة، رغم ندرتها، قد تعبِّر عن جوهر النموذج أكثر من اللحظات أو الحلقات الأخرى. وفي دراستي للمجتمع العلماني أشرت إلى ثلاث لحظات نماذجية: اللحظة السنغافورية التي يظهر فيها العالم بحُسبانه سوقًا والإنسان بحُسبانه كائنًا اقتصاديًا، واللحظة التايلاندية التي يظهر فيها العالم بحُسبانه وكالة سياحية

www.scantopdf.eu

أو ملهى ليليًا، والإنسان بحُسبانه كائنًا جسمانيًا، واللحظة النازية أو الصهيونية التي يظهر فيها العالم والإنسان بحُسبانهما مجرد مادة تُوظَّف .

ومن المفاهيم التحليلية التي طورتها كذلك ما سميته «التعريف من خلال دراسة مجموعة من المصطلحات المتقاربة ذات الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل». فقد لاحظت أنه في العلوم الإنسانية ثمة كثرة مفرطة للمصطلحات ، كل مصطلح فيها ينطبق على مجموعة من الحالات دون غيرها، مما ينتج عنه أن أي محاولة حقيقية للتعميم تخفق بسبب تضارب المصطلحات وضيقها (رغم أنها تنطبق على حالات بعينها). وتظهر المشكلة بحدة حينما نتعامل مع مصطلحات واردة لنا من الغرب. فالعلوم الإنسانية الغربية تتسم بهذه الكثرة المفرطة، خاصةً مع تزايد معدلات النسبية. ولذا أقوم عادةً بحصر هذه المصطلحات ثم أقوم بتجريد ما أتصور أنه النموذج الكامن وراءها (من خلال عملية طويلة من التفكيك وإعادة التركيب) الذي يبيِّن الوحدة الكامنة وراء المصطلحات المتناثرة، ومن خلال ذلك نضع التعريف للظاهرة موضع الدراسة .

وقد استخدمت هذه الطريقة في الموسوعة في تعريف النموذج، كأداة تحليلية ، والحلولية والعلمانية الشاملة والجماعة الوظيفية، بحُسبانها نماذج تحليلية. وهي نماذج أخذت في الاتساع حتى إن الموسوعة أصبحت مجرد «دراسة حالة» وتطبيق لنماذج ثلاثة على اليهود واليهودية والصهيونية. ولكن ، تظل النماذج أكثر اتساعًا وشمولاً من «الحالة» التي طبقت عليها. فنموذج الحلولية يمكن استخدامه في دراسة الباطنية والغنوصية والديانات الآسيوية ، وبخاصة الشنتو، بل ومقدمات العلمانية ونشوء الرأسمالية (وعلم مقارنة الأديان). كما يمكن استخدامه في فهم فلسفات مختلفة ابتداءً من فلسفة إسبينوزا وانتهاءً بفلسفة هيجل وبرجسون وكثير من الفلسفات المادية. كما أن دراستي لجماعات الوظيفية والدولة الصهيونية تستخدم مفهوم الحلولية. أما نموذج العلمانية الشاملة فهو من الاتساع والشمول بحيث يمكن تطبيقه على الإمبريالية الغربية والداروينية والحداثة الغربية وتاريخ العلمنة في الغرب. ويعد النموذج الثالث، الجماعة الوظيفية ، أكثرها جدة ويمكن تطبيقه على المماليك والإنكشارية والصينيين في جنوب شرقي آسيا وجماعات المهاجرين. (وأنوي كتابة دراسات مستقلة عن كل نموذج، لأبين إمكانياته التحليلية). بل أزعم أن استخدام النماذج التحليلية سيساعدنا على تجديد الفقه الإسلامي؛ فبدلاً من النظر لكل المفاهيم الإسلامية وكل النصوص الدينية بحُسبانها متساوية الدرجة، يمكن من خلال

www.scantopdf.eu

النمـاذج أن نصل إلى هرم المفاهيم والنصـوص بحيث نحـدد مـا هو الأسـاسي ومـا هو الفرعي.

وقد صدر لي كتاب بعنوان **الإنسان والحضارة والنماذج المركّبة: دراساتٌ نظريةٌ وتطبيقية**. وأنطلق في هذا الكتاب من الفكرة المحورية الأساسية في فكري: اختلاف الإنسان عن الطبيعة/ المادة، ومن ثَمَّ ضرورة استخدام النماذج المركبة لتفسير الظواهر الإنسانية، خاصة في أبعادها الحضارية والمعرفية والروحية التي تتجاوز المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي. فدراسة أي ظاهرة على هذا المستوى تتطلب نَموذجاً تحليلياً متعدِّدَ الأبعاد والمستويات، مركَّباً إلى أقصى درجات التركيب حتى يمكنه الإحاطةُ بمعظم جوانب الظاهرة موضع الدراسة. وكل دراسات هذا الكتاب محاولة لتطبيق هذا المنهج التحليلي على ظواهر حضارية مختلفة، مثل حروب الفرنجة، ووضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية، وعلاقة معْمار المتاحف بالرؤى الفكرية والأيديولوجية المختلفة، والانتفاضة الفلسطينية. كما يتضمن الكتاب عرضاً لمنهج كافين رايلي، المؤرخ الأمريكي، في تفسير الظواهر الحضارية من خلال النماذج المركبة. وفي النهاية أُلحقت بالكتاب دراسة نظرية طويلة في المنهج المقترح استخدامه في الدراسات الحضارية، تضمنت مقارنةً بين النماذج الاختزالية والنماذج المركبة وكيفية صياغتها. وقد صدرت طبعة ثانية أكثر عمقاً وتفصيلاً بعنوان دفاع عن الإنسان.

الحلوليـة

لم أبالغ كثيراً حين قلت إنه لم يكن هناك تعاقب في ظهور الموضوعات المنهجية الثلاثة: رفض الموضوعية المتلقية، وتبني تصور للعقل بحُسبانه كيانًا توليديًا، وللنموذج بحُسبانه أداة تحليلية مناسبة، فقد ظهرت العناصر الثلاثة تدريجيًا بشكل متزامن تقريبًا، فالواحد مستحيل دون الآخر. ويمكنني أن أقول الشيء نفسه عن النموذجين الأساسيين في كتاباتي: الحلولية (وحدة الوجود) والعلمانية الشاملة.

وأنا لم أبلور هذين النموذجين بشكل كاف إلا في التسعينيات، بعد مرور ثلاثين عامًا من التفكير والكتابة. فبعد أن انتهيت من الموسوعة، وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أتأمل فيما كتبت لأصل إلى بعض التعميمات، فكتبت ما يقرب من أربعة مجلدات

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

أدرس فيها منهجي والأطروحات النظرية الأساسية. (وقد وجدت أنها طويلة للغاية فقمت بتلخيصها في المجلد الأول من الموسوعة الحالية. كما قمت بإعادة كتابة معظم أجزاء الموسوعة بعد أن ازدادت النماذج التحليلية وضوحًا في ذهني).

ويمكنني القول بأن أفكاري الفلسفية الأساسية (النماذج التحليلية) لا تختلف في كثير من النواحي عن أفكاري في الماضي، وإن كانت قد اكتسبت تبلوراً عن ذي قبل. كما أن المفردات - مثل الطبيعة/ المادة، والعقلانية المادية، والمسافة - لا تختلف كثيراً عن المفردات التي استخدمتها في الماضي وإن كانت قد أصبحت أكثر وضوحًا. ولعل القارئ قد أدرك أن الفكرة المحورية في فكري هي إيماني بأن الإنسان ظاهرة مركبة لا يمكن أن تُردُّ إلى ما دونها: الطبيعة/ المادة. ولذا فدراسة الإنسان تحتاج لنماذج مركبة تحوي قدراً من الثنائية، أما النماذج التي نحتاجها لدراسة الطبيعة فهي نماذج مادية بسيطة رياضية آلية، قوانينها تتسم بقدر من الثبات ولذا يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها إلى حدٍّ ما. وتظهر ثنائية الطبيعي (المادي) والإنساني في كثير من كتاباتي.

هذا التمييز بين الطبيعي والإنساني هو الفكرة الأساسية الكامنة وراء نموذجي الحلولية والعلمانية الشاملة. ولفهم هذين النموذجين لابد أن أذكر تمييزي بين ما أسميه «النزعة الجنينية» و«النزعة الإنسانية أو الربانية». وأذهب إلى أن هاتين النزعتين أصيلتان في النفس البشرية، يتنازعانها بشكل دائم. أما «النزعة الجنينية» فهي نزعة لرفض كل الحدود وإزالة المسافة التي تفصل بين الجزء والكل، والفرد والمجموع، والطبيعة والإنسان، والمخلوق والخالق إلى أن يصبح الإنسان كائنًا لا حدود له. ولكن حينما تتحقق هذه النزعة، يجد الإنسان نفسه جزءًا من كل أكبر منه يحتويه ويشمله ويخضع لقوانينه. وهذه الرغبة في إزالة الحدود والتحكم الكامل هي، في واقع الأمر، رغبة في التخلص من تركيبية الذات الإنسانية وتعينها ومن عبء الخصوصية والوعي الإنساني، وهي محاولة للهرب من الواقع الإنساني بكل ما فيه من ثنائيات وتدافع، وخير وشر، وإمكانيات النجاح والفشل، والنهوض والسقوط، والحرية والحتمية، ومحاولة التجاوز والتكيف، أي أنها نزعة للهروب من الحيز الإنساني المُركّب متعدد الأبعاد إلى عالم بسيط أحادي البُعد (مثل الطبيعة/ المادة).

هذا العالم الذي يهرب إليه الإنسان عالم سائل بسيط أملس يشبه الرحم حيث كان

www.scantopdf.eu

الجنين يعيش بلا حدود ولا قيود، لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن رحم أمه، ولا توجد مسافة أو حيز يفصلان بينهما، أو يشبه حياة الطفل الرضيع في الأشهر الأولى من حياته، حين يتصور أنه لا يزال جزءًا لا يتجزأ من أمه. وحينما يمسك بثديها يتصور أنه قد تحكم في العالم بأسره، وأنه قد تواصل مع العالم كله، وأن الدائرة قد انغلقت أو اكتملت تمامًا فيشعر بالطمأنينة الكاملة، ولا توجد لديه أي حاجة للتجاوز، مع أنه لا حرية ولا إرادة مستقلة له في عالمه البسيط الضيق هذا. ويظل الإنسان في هذه الحالة إلى أن يتم فطامه وانفصاله عن أمه. والحالة الجنينية حالة نفسية ذات أصل بيولوجي، ولكنها تستقل عن أصلها البيولوجي، وتصبح حالة نفسية ورؤية للكون.

وعادةً ما أستخدم السفر بالدرجة الأولى في الطائرة كصورة مجازية للحالة الجنينية. فالمسافر يدخل الرحم (الطائرة) ويجلس في كرسيه فيعامل وكأنه طفل مدلل يطلب فيُجاب طلبه، والمضيفات لا هم لهن إلا إدخال السعادة على قلبه. ويبدو أن مصمم الإعلان التليفزيوني عن سيارة BMW الذي شاهدته في التليفزيون الفرنسي قد أدرك شيئًا من هذا القبيل. يبدأ الإعلان بثدي أم، ثم تظهر صورة طفل يمسك بهذا الثدي ويبدأ في الرضاعة. ثم تنتقل الكاميرا إلى صورة رجل يجلس مستريحًا على كرسي السيارة، وكأن الرجل في علاقته بالسيارة مثل الطفل في علاقته بثدي أمه.. حيث العودة إلى عالم بلا مشكلات ولا أبعاد. والنزعة الجنينية تعبِّر عن نفسها في السعار الجنسي والاستهلاكي الذي يصيب الإنسان في المجتمعات المتقدمة (وفي تصوري أن الإعلانات توظف هذه النزعة نحو الهروب من المسئولية والاختزال في تسويق السلع. وجوهر أي إعلان هو ظهور مشكلة ما (القشرة - الصحون المتسخة ... إلخ) ثم حل هذه المشكلة بحيث يصل الإنسان إلى حالة التحكم الكامل).

في مقابل النزعة الجنينية تضع النزعة الإنسانية أو الربانية، وهي نزعة نحو تجاوز الطبيعة/ المادة وعالم المعطيات المادية والشيئية، نزعة نحو تمييز الجزء من الكل، والفرد عن المجموع، والإنسان عن الطبيعة، والمخلوق عن الخالق، ونحو قيام المسافة بينهم، مما يعني أن العالم يتسم بقدر من الثنائية، كما يعني أن الإنسان، حينما يحقق انفصاله عن الكل وعن الطبيعة وعن الخالق، يصبح كائنًا حرًا مسئولاً، يقبل الحدود وعبء الوعي وتأكيد الهوية الإنسانية، يعيش داخل الزمان مثل الكائنات الطبيعية ولكنه يدرك أنه مختلف عنها، فهو مستخلف من الله، يحوي داخله عنصراً غير مادي غير طبيعي، لا

www.scantopdf.eu

يمكن رده إلى الطبيعة/ المادة (ولذا نسميه «القبس الإلهي») الذي يحول الإنسان من كائن طبيعي (إنسان طبيعي) إلى إنسان إنسان أو إنسان رباني. وغني عن القول إن الفرق بين النزعة الجنينية والنزعة الربانية هو الفرق بين الطبيعة والثقافة، وبين الطبيعي والإنساني. وجاذبية النزعة الجنينية (في مقابل النزعة الربانية) عالية للغاية، فالأولى تعمل مع قانون الجاذبية الأرضية وتعمل الثانية ضده، وكما أقول إن السقوط في الوحل أسهل بكثير من الصعود إلى النجوم. (وكما بينت من قبل، استبدلت الإمبريالية النفسية السهل بالجميل والمركب، والطبيعي المادي بالإنساني، ومن هنا جاذبيتها الكبرى).

وتعتَبر النزعة الجنينية (تلك الرغبة في العودة إلى الرحم والذوبان في الكل) عن نفسها من خلال ما أسميه مذهب الحلول أو الكمون القائل بأن العالم كُلٌّ واحد متماسك بشكل عضوي، لا تتخلله أي ثغرات ولا يعرف الانقطاع أو الثنائيات، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه. ويذهب مذهب الحلول إلى أن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد. فالمبدأ الواحد المنظم للكون ليس مفارقاً أو متجاوزاً له أو منزّهًا عنه وإنما كامن (حَالٌّ) فيه. ولذا فالعالم مكتف بذاته يحتوي على مركزه، وركيزته الأساسية (مطلقة) داخله. ولأن الكون كله مكون من جوهر واحد، ينكر هذا المذهب وجود الحيز الإنساني المستقل (عن الكل وعن الطبيعة وعن الخالق) كما ينكر إمكانية التجاوز. وفي إطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر، مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها، إلى مبدإ واحد كامن في العالم. ومن ثم تتم تسوية الإنسان بالكائنات الطبيعية وتُلغى كل الثنائيات.

والحلولية متتالية يؤدي تتالي حلقاتها إلى وَحْدة الوجود، التي تتبدى في صيغتين مختلفتين ظاهرًا، هما في واقع الأمر صيغة واحدة برغم اختلاف التسميات التي تُطلَق على مركز العالم (المبدأ الواحد) الحالّ فيه، المفارق له:

(أ) في المنظومات الحلولية الكمونية الروحية (وحدة الوجود الروحية)، يُسمَّى المبدأ الواحد «الإله»، ولكنه إله يَحلّ في مخلوقاته ويمتزج ثم يتوحد معها ويذوب فيها تمامًا بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، أي أنه لا يبقى من الإله سوى اسمه، ولكنه إله متحد تمامًا بالطبيعة المادية (مرة أخرى امتزاج الروحي بالمادي) لا يمكنه الحديث إلا من خلالها، ويمكنها هي الحديث باسمه. لكل هذا يمكن الحديث بلغة روحية

www.scantopdf.eu

عن عالم المادة، ولغة مادية عن عالم الروح (فهذا عالم ذو بُعد واحد لا يتسم بأي ثنائية). وهذا هو إنجاز إسبينوزا ومن بعده هيجل. وحين يمارس المرء تجربة جسدية ممتعة فإنه بوسعه أن يصفها بأنها تجربة روحية! (والشعر الصوفي الحلولي مليء بالإشارات الجنسية، تلميحًا في بعض الأحيان، وتصريحًا في أحيان أخرى). فالتجربة الجسدية لا تختلف في جوهرها عن التجربة الروحية في عالم واحدي مكون من جوهر واحد. فكل الأشياء تسري فيها روح القداسة وبنفس الدرجة: الشجرة ـ الطفل ـ الخير ـ الشر ـ الطاقة ـ القوة، ومن ثم تتساوى الأمور تمامًا وتسود الواحدية، واحدية روحية، ولكنها مع هذا واحدية لا تعرف الثنائيات.

(ب) في المنظومات الحلولية الكمونية المادية (وَحْدة الوجود المادية)، يتم الاستغناء تمامًا عن اسم الإله، وعن أي لغة روحية أو مثالية، ويُسمَّى المبدأ الواحد «قوانين الطبيعة» أو «القوانين العلمية» أو «القوانين المادية» أو «قانون الحركة» أو «حركة التاريخ» أو «الحتمية التاريخية» أو «الأنا» إلى آخر هذه المطلقات. ويحل الخطاب المادي الصرف محل الخطاب الروحي اسمًا المادي فعلاً. وتُصفى أي ثنائية ولو اسمية وتسود الواحدية المادية، فكل الأشياء في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير مادية (ومن ثم متساوية). وقوانين الطبيعة/ المادة هي قوانين شاملة يمكن تفسير كل الظواهر – ومن بينها الظاهرة الإنسانية – من خلالها.

ووحدة الوجود المادية هي الأخرى تتبع متتالية يمكن تلخيص حلقاتها فيما يلي:

١ – تبدأ المتتالية بأن يواجه الإنسان الكون دون وسائط، فيعلن أنه سيِّد الكون ومركزه، ولذا فهو مرجعية ذاته، الذي لا يستمد معياريته إلا منها. وانطلاقًا من هذا الافتراض، يحاول هذا الإنسان أن يؤكد جوهره الإنساني (المستقل عن الطبيعة) وأن يتجاوز الطبيعة/ المادة بقوة إرادته وأن يفرض ذاته الإنسانية عليها باسم إنسانيتنا المشتركة، أي باسم الإنسانية جمعاء.

٢ – ولكن في غياب أي مرجعية متجاوزة لذاته الفردية، ينغلق الإنسان على هذه الذات، فيصبح تدريجيًا إنسانًا فردًا لا يفكر إلا في مصلحته (أو مصلحة عرْقه أو أمته) ولذته، ولا يشير إلى الذات الإنسانية وإنما إلى الذات القومية أو الفردية. حينئذ تصبح هذه الذات، لا «الإنسانية جمعاء»، هي موضع الحلول. فيؤلِّه الإنسان الفرد نفسه أو قومه

Produced with ScanTopPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

في مواجهة الطبيعة وفي مواجهة الآخرين ويصبح إنسانًا إمبرياليًا. ويستمد هذا الإنسان الإمبريالي معياريته من ذاته الإمبريالية فيوظف الآخرين ويسخرهم، ويوظف الطبيعة نفسها ويسخرها لحسابه.

٣ - ولكن الإنسان يكتشف تدريجيًا أن الطبيعة/ المادة هي الأخرى موضع الحلول، وأنها هي أيضًا مرجعية ذاتها ومكتفية بذاتها. فتظهر إثنينية وازدواجية صلبة أخرى، ازدواجية الإنسان المتمركز حول ذاته الذي يشغل مركز الكون، مقابل الطبيعة المكتفية بذاتها التي تشغل مركز الكون.

٤ - ولكن سرعان ما تنحل هذه الازدواجية الصلبة، إذ تصبح الطبيعة/ المادة وحدها هي موضع الحلول وتحل الواحدية الطبيعية/ المادية محل الواحدية الإنسانية. فيبدأ الجوهر الإنساني في الغياب تدريجيًا ويحل الطبيعي محل الإنساني، ويستمد الإنسان معياريته لا من ذاته وإنما من الطبيعة/ المادة، ويزداد اتحاده بالطبيعة إلى أن يذوب فيها تمامًا، ذوبان الجزء في الكل.

حينئذ يظهر الإنسان الطبيعي، وهو إنسان ليس فيه من الإنسان سوى الاسم، إنسان جوهره طبيعي/ مادي وليس إنسانيًا، فهو يذعن للطبيعة ويتبع قوانينها، وبعد أن كان يشير إلى ذاته (الإنسانية أو الفردية)، يصبح جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة يشير إليها، أي يتم تفكيك الإنساني ويتم رده إلى الطبيعي.

٥ - تتصاعد معدلات الحلول والتفكيك، وتتعدد مراكز الحلول إلى أن تصبح الصيرورة هي مركز الحلول، ويصبح النسبي هو المطلق الوحيد، ويصبح التغيير هو نقطة الثبات الوحيدة. حينئذ تفقد الطبيعة/ المادة مركزيتها، بحُسبانها المرجعية النهائية.

وقد كان لقصيدة وردزورث التالية، والتي كنت أدرّسها لطالباتي، أكبر الأثر في بلورة رؤيتي للنزعة الإنسانية (الربانية) في مقابل النزعة الجنينية (الطبيعية المادية): إنها أمسية بديعة، هادئة طليقة، / والوقت المقدس ساكن كراهبة/ تتعبد لاهثة؛ والشمس العريضة/ تغوص إلى أسفل في سكونها؛/ أنصت! إن الكائن العظيم قد استيقظ/ محدثًا بحركته السرمدية/ صوتًا كالرعد - إلى الأبد. / أيتها الطفلة العزيزة! أيتها الصبية الغالية! يا من تسيرين معي هنا، / إن كنت تبدين وكأن لم يَمسَّك الفكر الرصين، / فإن هذا لا

www.scantopdf.eu

يجعلك أقل قدسية . / أنت ترقدين على صدر إبراهيم طيلة العام؛ / وتتعبدين في محراب المعبد الداخلي . / ويكون الله معك ونحن لا ندري» .

(عبارة «على صدر إبراهيم» عبارة إنجيلية تعني «حجْر الإله» أي قريبًا جدًا منه) .

والقصيدة من نوع السونت الإيطالي التي تنقسم إلى مقطع ثماني (أوكتيف octave) ومقطع سداسي (سستت sestet) . وقد وجد الشاعر أن هذا الشكل الشعري مناسب له للتعبير عن موضوعه الأساسي الكامن: رؤيتان للوجود مختلفتان، ولكن لكل منهما مشروعيته . في النصف الثاني من السونت (المقطع السداسي) نجد وصفًا دقيقًا للحالة الجنينية . فالطفل غير مدرك لما حوله، وعقله سلبي لم يمسسه «الفكر الرصين»، وهو جزء لا يتجزأ من كل أكبر : الطبيعة والإله . يسير الطفل غير مدرك لجمال الطبيعة أو أنه يتعبد في محراب المعبد الداخلي (فهو جزء من كل) . وتتسم اللغة هنا بالبساطة ، فلا كلمات ضخمة ولا صور مركبة إذ لا توجد مسافة بين المدرك والمدرَك (ولا توجد أي ثنائية، فتسود الواحدية) . ومع هذا يرى الشاعر أن للطفل قدسيته التي لا يمكن إنكارها .

أما في النصف الأول من السونت (المقطع الثماني) فهناك الرجل وهو ممثل الحالة الإنسانية والربانية . ينظر للطبيعة فيتجاوز سطحها (فهو ليس بموضوعي متلق) ومن خلال عقله التوليدي تتحول الطبيعة المادية إلى صور، ويتحول البحر إلى كائن عظيم «محدثًا بحركته السرمدية/ صوتًا كالرعد – إلى الأبد» . واللغة في هذا القسم مركبة، والصور المركبة تتابع فيه، إذ توجد ثنائية الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، والإنسان والطبيعة . ولا يرى الشاعر أي غضاضة في الحالة الجنينية طالما أنها في مرحلة الطفولة . ولكن في مرحلة الرجولة يجب أن يكون عقل الإنسان فعالاً قادرًا على تحويل الطبيعة إلى رموز إنسانية تنطق بما هو إنساني ورباني .

والقصيدة تربط بين الحالة الجنينية والحلولية (كما تربط بين الحالة الإنسانية والربانية والمقدرة على التجاوز) . وقد وضحت لي سوناتا وردزورث (وأشعاره الأخرى) أن وحدة الوجود الروحية لا تختلف كثيرًا عن وحدة الوجود المادية . فالذوبان في الإله مثل الذوبان في الطبيعة هو ذوبان في الكل وفقدان للوعي والمسئولية . (ومع هذا يرى وردزورث أن مرحلة وحدة الوجود بالنسبة للطفل هي مرحلة مؤقتة ، وأنها دليل على الأصل الرباني للإنسان، وبرغم أنه سيبتعد عن هذا الأصل ليعيش في عالم فيه ثنائيات (ثنائية الخالق

www.scantopdf.eu

والمخلوق - والإنسان والطبيعة) ليحقق إنسانيته، فهو لن يغرق في حمأة المادة بسبب أصله الرباني هذا).

ويبدو أن الإنسان يعيش في عالم الحواس (الجنيني المادي) ويجد صعوبة بالغة في الانطلاق نحو التجاوز الرباني (ومن هنا الأضرحة والأولياء والسحر، فهي كلها تعبير عن نزوع الإنسان الحلولي الجنيني، والرغبة في إدراك المفارق المتجاوز من خلال الحواس الخمس، تمامًا مثل الطفل في الرحم أو في علاقته بثدي أمه، فهي مصدر الحياة بالنسبة له، وهو جزء منها). ذهبت مرة أنا وزوجتي لحضور الليلة الكبيرة في السيد البدوي، وحضرت إحدى حلقات الذكر والإنشاد. ويبدو أن المنشد، وكان صوته جميلاً للغاية، أدرك بشكل فطري ثنائية الجنيني والرباني وصعوبة تجاوز الأولى وصولاً للثانية. بدأت قصيدته بالحديث عن فتاة جميلة للغاية تعيش في قصر جميل اسمها زُهرة، وقد تفننت القصيدة في وصف مفاتنها والتغزل فيها. ولكن تدريجيًا نكتشف أن زهرة هي رمز أعمق، إذ تتحول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحب الحسي المباشر يتحول إلى حب النبي صلى الله عليه وسلم. وتنطلق القصيدة في الحديث عن حب الرسول، وتدريجيًا تتحول إلى قصيدة عن حب الله عز وجل. وهكذا أخذ المنشد بيد الناس وتحرك بهم من المحسوس الجنيني الذي يعيشون فيه إلى الله المفارق، الذي ليس كمثله شيء (برغم أنه أقرب إلينا من حبل الوريد) عبر حب الرسول، أقرب الناس إلى الله، ولكنه إن هو إلا بشر مثلنا.

ويبدو أن المنشد (أو المؤلف الذكي للقصيدة) أدرك أن الحلولية مثل الباب قد تقود من الإيمان إلى الكفر والوثنية (ومن التركيب إلى الواحدية) حينما ينزل الله ويتحد بمخلوقاته، ولكنها قد تفعل العكس حين تجعل الإنسان يدرك أن العالم ليس شيئًا ماديًا ميتًا لا روح فيه، بل ينبض بالحياة والقداسة (فأينمَا تُولُّوا فثمَّ وَجْهُ اللَّه) (البقرة : ١١٥). ثم تأخذ بيده ليتجاوز الأشياء ليصل إلى المبدأ الواحد الكامن وراء الأشياء المتعددة، المفارق لها. وهذا ما فعله كثير من الشعراء الرومانتيكيين بدرجات مختلفة، ومنهم من بقي حلوليًا يرى القداسة في الطبيعة ويحتفي بها ويبقى عندها لا يتجاوزها (كيتس وشيللي)، ومنهم من نجح في التجاوز ليصل إلى رؤية إيمانية حقة (وردزورث وكولريدج).

وقد حاولت تفعيل نموذج الحلولية (بحُسبانها إنكار التجاوز وتأكيد أن كل ظاهرة

www.scantopdf.eu

مكتفية بذاتها، تحوي داخلها ما يكفي لتفسيرها، وتحرك ذاتها) في تحليل كثير من الظواهر والنصوص. فالفلسفة المادية في تصوري فلسفة حلولية، ترى أن الطبيعة مكتفية بذاتها، والتوجه نحو اللذة والشذوذ الجنسي لا يختلفان كثيراً عن ذلك. والفلسفة النيتشوية (وأصلها الداروينى) فلسفة حلولية تماماً، تجعل الإنسان مكتفيًا بذاته، لا يمكنه أن يستمد معياريته من خارج ذاته، لا تحده حدود أو قيود أو سدود. والسوبرمان هو قمة هذا الاتجاه، فهو موضع الحلول. وتعبر الحلولية عن نفسها بشكل أقل عنفًا في فكرة الإنسان الاستهلاكي الباحث عن لذته وعن مصلحته، فهو يجعل من ذاته مرجعيته النهائية والوحيدة (الشذوذ الجنسي بهذا المعنى تعبير متطرف عن هذه الحلولية).

والصهيونية هي الأخرى أيديولوجية حلولية وثنية (كما سأبين فيما بعد) ولذا يصفها بعض الحاخامات الذين بقوا داخل إطار العقيدة اليهودية بأنها عقيدة شيطانية، ويصفون الدولة الصهيونية بأنها «العجل الذهبي»، شيء مادي ألّهه اليهود بدلاً من الخالق. كما بينت أن الحلولية هي الأرضية التي يستند إليها الاتفاق المبرم بين الصهاينة الملاحدة والصهاينة المتدينين، فكلاهما يتفق على أن الشعب اليهودي «مقدس»، موضع الحلول، ولكنهم يختلفون بخصوص مصدر القداسة. فالمتدينون يرون أنه الخالق، ولكنه خالق حالٌّ في شعبه، بينما يرى الملحدون أنه شعب مقدس، خلع القداسة على نفسه. وقد كتبت تاريخًا مصغراً للفلسفة الغربية، مستخدمًا نموذجي الحلولية والتجاوز أبيِّن فيه أن الفلسفة اليونانية قبل سقراط فلسفة حلولية، ولكنها وصلت إلى قدر من الثنائية في العصور الوسطى، ثم عادت للحلولية مرة أخرى مع عصر النهضة. ومع هذا ظل هناك قدر من الثنائية في الإنسانية الهيومانية (الإنسان في مقابل الطبيعة). حاول إسبينوزا القضاء عليها وفرض الواحدية المادية، وحاول كانط الدفاع عنها، ولكنها أخذت تُهمَّش تدريجيًا إلى أن تصل إلى هيجل حيث تصل الحلولية وفلسفة وحدة الوجود إلى ذروتها.

العلمانية الشاملة

لم أتناول بالتفصيل في دراساتي وحدة الوجود الروحية، ولا تلك السمات التي تميزها عن وَحْدة الوجود المادية، فالأخيرة هي التي تهمني بحُسبانها تعني سيادة القانون الطبيعي/ المادي على كل من الطبيعة والإنسان. وأميِّز بين الحلولية المادية الصلبة والحلولية

Produced with ScanTopPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

السائلة. فالحلولية الصلبة هي الحلولية المادية في مراحلها الأولى حين يتم تصفية الإنسان باسم الطبيعة، ويكون مركز العالم هو الطبيعة/ المادة (وهذه هي مرحلة الحداثة). ولكن تصبح أشياء عديدة موضع الحلول، فتتعدد المراكز ويسقط كل شيء في قبضة الصيرورة الكاملة، فيغيب كل يقين وتسيطر النسبية تمامًا. ويفضي بنا كل هذا إلى عالم مفكك لا مركز له، ويتحول العالم إلى كيان شامل واحد تتساوى تمامًا فيه الأطراف بالمركز، عالم لا يوجد فيه قمة أو قاع، أو يمين أو يسار (أو ذكر أو أنثى)، وإنما يأخذ شكلاً مسطحًا تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتُصفى فيه كل الثنائيات، وتنفصل الدوال عن المدلولات فتتراقص بلا جذور ولا مرجعية ولا أسس. وتصبح كلمة «إنسان» دالاً بلا مدلول، أو دالاً متعدد المدلولات، وهذا هو التفكيك الكامل، وهذا هو أيضًا الانتقال من عالم التحديث والحداثة (والإمبريالية) والحلولية المادية الصلبة إلى عصر ما بعد الحداثة (والنظام العالمي الجديد) والحلولية المادية السائلة.

ولكن هذا هو ذاته ما أسميه «العلمانية الشاملة» التي تتميَّز من العلمانية الجزئية في أن العلمانية الجزئية لا تدور في إطار القانون الطبيعي وحده، إذ إنها تترك مجالاً للقانون الإنساني (والأخلاقي والديني) ومن ثم تسمح بقدر من الثنائية. وهذا يتضح في أن العلمانية الجزئية تطالب بفصل الدين عن الدولة وحسب، ولكنها تلزم الصمت بخصوص مفهوم القيم المطلقة والحياة الخاصة والمرجعية النهائية للقرارات السياسية والاقتصادية، أي أنها تترك حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية (غير الطبيعية غير المادية) والأخلاقية المطلقة، بل للقيم الدينية، مادامت لا تتدخل في عالم السياسة بالمعنى الفني (ولذا أسمي العلمانية الجزئية العلمانية الأخلاقية أو الإنسانية).

وقد تم التوصل إلي تعريف العلمانية بحُسبانها رؤية جزئية قد تم التوصل إليه في القرن التاسع عشر، وكان يصف واقع العلمانية بالفعل آنذاك، إذ كانت الدولة كيانًا ضعيفًا هزيلاً لا تتبعه أجهزة أمنية وتربوية قوية، كما لم يكن هناك إعلام قوي يصل إلى المواطن في منزله. كل هذا يعني أن الحياة الخاصة ظلت بمنأى عن عمليات العلمنة، وظلت تحكمها القيم الأخلاقية والدينية (أو في صورة معلمنة).

وأنا بأعتباري مدافعًا عن الإنسان والإيمان، لا أرى أي غضاضة في تقبل العلمانية الجزئية، أي فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد (بالمعنى المباشر والمحدد للكلمة). إذ

www.scantopdf.eu

إنني بكل صراحة لا أحب أن أرى شيوخًا أو قساوسة أو فلاسفة أو أساتذة أدب إنجليزي يجلسون في لجان تناقش طرق تحسين التصدير وميزان المدفوعات أو نوع السلاح الذي يجب علينا تزويد جيشنا به. فمثل هذه الأمور الفنية يجب أن تُترك للفنيين.

ولكن المرجعية النهائية (الإستراتيجية والمعرفية والأخلاقية) للدولة هي أمور لا يمكن أن تُترك للفنيين. وهنا يمكن الحديث عن العلمانية الشاملة. فقد حدثت تطورات ضخمة غيَّرت الصورة تمامًا، إذ تغولت الدولة وحولت نفسها ومصلحتها إلى مرجعية نهائية تجبُّ كل المرجعيات، وهي دولة قوية، ذراعها طويلة يمكنها أن تصل لكل المواطنين من خلال مؤسساتها الأمنية والتربوية والإعلامية. وتوحش الإعلام، وأصبحت مؤسساته قادرة على الوصول إلى المواطن في أي مكان وزمان تزوده بمختلف المرجعيات! ولم تعد الحياة الخاصة بمنأى عن كل هذا، إذ يلاحظ اتساع رقعة الحياة العامة وتآكل رقعة الحياة الخاصة، حتى تكاد تختفي تمامًا.

علاوة على كل هذا فإن ثمة تحولات بنيوية كبرى (التصنيع - الهجرة إلى المدينة . . . إلخ) قد تبدو وكأنها لا علاقة لها بالعلمنة ولكنها قامت في واقع الأمر بتغيير رؤية الإنسان وإشاعة النسبية والحيادية والانفصال عن القيمة. لكل هذا لم يعد للتعريف القديم الجزئي للعلمانية أي علاقة بالواقع الجديد. ومع هذا استمر المصطلح واستمر استخدامه. وقد نجم عن ذلك أن كثيراً من الظواهر التي لا يمكن للتعريف الجزئي أن يشملها، بدأ يُنظر لها بحُسبانها ظواهر مستقلة عن العلمانية مثل الاغتراب والتشيؤ. إلخ. هذا يعني، في واقع الأمر، أن علم الاجتماع الغربي قد أخفق في التوصل إلى مصطلح مركب شامل يحيط بكل جوانب العلمانية بعد ما ظهر من تطورات وتحولات. ونتيجةً لهذا نجد أن أهم الدراسات عن المجتمع العلماني والظواهر المرتبطة بظاهرة العلمانية لا تُنشر تحت هذا المسمَّى، وإنما تُنشر تحت مسميات أخرى مثل «التسلع» أو «ثقافة النرجسية» أو «هيمنة النماذج الكمية».

لكل هذا قمت بصياغة مصطلح «العلمانية الشاملة» لأصف وضع المجتمع العلماني بعد التطورات التي أشرت إليها، فهي أيديولوجية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم، ومن هنا فهي لا يمكنها أن تتصالح مع الدين أو القيم الثابتة أو الإنسان، وتحاول أن تختزل حياة الإنسان في البعد المادي وحسب. وأعرِّف العلمانية الشاملة بأنها ليست مجرد

www.scantopdf.eu

فصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما هي فصل القيم والغايات الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الدولة وعن مرجعيتها النهائية وعن حياة الإنسان العامة والخاصة، وتطبيق القانون الطبيعي/ المادي على كل مناحي الحياة، وتصفية أي ثنائية بحيث يتم تسوية كل الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية، فتنزع القداسة تمامًا عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية، يمكن إدراكها بالحواس الخمس، كما يمكن لمن عنده القوة الكافية لهزيمة الآخرين أن يوظفها لصالحه. ونتيجةً لهذا يظهر العلم والتكنولوجيا المنفصلان عن القيمة والغاية.

والعلمانية الشاملة متتالية نماذجية تبدأ بعالم الاقتصاد الذي يصبح موضع الحلول (مرجعية ذاته، مكتفيًا بذاته، لا يشير إلا إليها) يستمد معياريته من نفسه، فتختفي المرجعية الإنسانية العامة، ويستمد كل مجال معياريته من شيئيته، ويتم الحكم عليه من منظور مدى كفاءته في تحقيق أغراضه، فتصبح المعايير في المجال الاقتصادي اقتصادية، ثم يكتسب كل نشاط شرعيته من مدى نجاحه في تحقيق أهدافه، فتصبح المعايير في المجال السياسي سياسية، وفي المجال العلمي علمية، وفي المجال الجمالي جمالية.

ثم تتصاعد هذه العملية إلى أن يصبح العالم بأسره مجالات غيرَ متجانسة، غيرَ مترابطة، متناثرة لا يربطها رابط، إذ يصبح لكل مجال مرجعيته النهائية المختلفة، ويتزايد تحدد النشاطات والوظائف وعدم تشابكها مع أي نشاطات أو وظائف أخرى. وهذا يعني في واقع الأمر تبسيطها أو ترشيدها فتصبح عناصر غير شخصية ومتماثلة إلى حدٍّ كبير فيسهل التعامل معها («معالجتها») ودراستها والتحكم فيها وإخضاعها لنماذج تحليلية بسيطة (عادةً كمية) وقواعد إجرائية ذات طابع مادي كمّي عام.

ثم تتغلغل عمليات العلمنة الشاملة وتنتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فيتحول الجُوّاني إلى برّاني، والباطن إلى ظاهر، كما تتحول الأسرار إلى ظواهر علمية قابلة للدراسة الموضوعية! وتسود العلاقات التعاقدية (الدقيقة) محل الصراعات الإنسانية المباشرة. وتسود أخلاقيات السوق والقيم الداروينية في كل مجالات الحياة.

ثم يُعرَّف الإنسان ذاته في ضوء احتياجاته المادية، أي أنه هو ذاته، شأنه شأن النشاطات الطبيعية والاجتماعية، ينفصل عما هو إنساني واجتماعي وتصبح مرجعيته النهائية مادية. فيختفي الإنسان الإنسان (الإنسان الرباني) ويظهر الإنسان الطبيعي، الذي

www.scantopdf.eu

يتحرك داخل الحيز الطبيعي/ المادي لا يبرحه، ويحكم على نفسه وعلى العالم بمعايير مستقاة من عالم الطبيعة/ المادة، أي أن المنظومة العلمانية تبدأ بسحب الأشياء من عالم الإنسان وتضعها في عالم مستقل تسميه «عالم الأشياء»، ثم بعد ذلك تسحب الإنسان نفسه من عالم الإنسان وتضعه في عالم الأشياء هذا.

وانطلاقًا من هذا التعريف للرؤية العلمانية الشاملة قمت بتطبيق هذا النموذج التحليلي على كل مناحي الحياة: الطعام - الشراب - الملابس - القوانين - المعمار - السياسة... إلخ. لأبيِّن تصاعد معدلات العلمنة. خذ على سبيل المثال حالة الفنان الفوتوغرافي الياباني «العالمي» آراك الذي يتسم فنه بنوع من الإباحية المعرفية التي تتجاوز القيمة تمامًا. حقق هذا الرجل شهرته بأن صور مراحل موت زوجته بالسرطان، ثم تخصص بعد ذلك في تصوير البنات الصغيرات عرايا (أي أنه حوَّل البشر إلى مادة استعمالية ولم يفرِّق بين الإنسان والشيء الطبيعي/ المادي). والفيلم الوثائقي الذي شاهدته عنه في التليفزيون البريطاني يعرض منظرًا لفتاة صغيرة تريد أمها أن يقوم آراك بتصويرها عارية والفتاة ترفض لأنها لا تود أن تتجرد من ملابسها، وتحاول أمها أن تقنعها بأن تدع آراك يصورها لأنه سيجعلها مشهورة (والشهرة كما يبدو قيمة مطلقة ومرجعية نهائية!) ويشترك آراك في محاولة إقناع الفتاة، ويستخدم حججًا قوية في ذلك! ومن منظور علماني شامل، لا يمكن الاحتجاج على محاولته هذه ولا على فنه الإباحي، لأن المعايير لابد أن تكون جمالية محضة منفصلة عن القيمة.

ففي عالم الرياضة، على سبيل المثال، بينت كيف أن ممارسة الرياضة في الماضي كان المفروض فيها تهذيب الجسد وتدريب الناس على التعاون وعلى الصراع الرقيق لتفريغ نزعاتهم العدوانية من خلال قنوات متحضرة. ولكن تدريجيًا تنفصل الرياضة عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها، وتصبح معايير الرياضة رياضية، ويصبح إحراز النصر هو الهدف الأعلى والأسفل والوحيد. ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تمامًا للرياضة، واحترافهم، وبيعهم وشرائهم وتحولهم إلى نجوم تُستخدم في الإعلانات، فاقتصاديات السوق تقتحم هذا القطاع تمامًا. ونسمع بعد ذلك عن عدد كبير من الرياضيين يستخدم المخدرات لتحقيق النصر. أين كل هذا من قيم التعاون والصراع الرقيق والمرجعية الإنسانية؟ وقد بينت - فيما بينت - أن من أهم أشكال العلمنة ما يسمَّى بوحدة العلوم (التي سميتها واحدية العلوم) وهي الإيمان بأنه لا توجد فروق جوهرية بين الظواهر الطبيعية

www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

والظواهر الإنسانية، وأن النماذج التحليلية التي تصلح لدراسة الواحد تصلح لدراسة الآخر لأن قوانين المادة تسري على كل الكائنات، لا تفرق بين الإنسان والطبيعة!

والعلمانية الشاملة هي ذاتها التحديث على النمط الغربي. وعادةً ما يعرَّف التحديث بأنه تبني العلم والتكنولوجيا والعقل، ولكنني أضيف «المنفصلين عن القيمة والغاية» حتى يتسنى التحكم في الإنسان والطبيعة تحكمًا كاملاً. فالتحديث جوهره تطبيق نموذج الطبيعة/ المادة على ظاهرة الإنسان، وهذا يعني أن اتجاهات فكرية حديثة مثل الماكيافيلية (الغاية تبرر الواسطة: ماكيافللي) والهوبزية (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان: هوبز) والداروينية (الصراع من أجل البقاء - والبقاء للأصلح وللأقدر على التكيف: داروين) والنيتشوية (تأكيد إرادة القوى والصراع ورفض المحبة بحُسبانها مؤامرة الضعفاء ضد الأقوياء: نيتشه) وأخيرًا البراجماتية (الحكم على العقل لا من خلال أي منظور أخلاقي قبلي، وإنما من خلال نتائجه العملية: جيمس)، أقول إن كل هذه الفلسفات هي مجرد تنويعات مختلفة على العلمانية الشاملة والنموذج المادي الكامن وراءها.

وقد حضرت مؤتمرًا نظمه اتحاد الطلبة المسلمين في فرنسا في مدينة ليموج (الشهيرة بصنع الأواني والتحف الصينية التي تسمى باسمها). وكان ضمن الحاضرين أعضاء المحفل الماسوني في المدينة. وعرضت فكرتي عن العلمانية الشاملة Laicisme compre-rhensive، ويبدو أن الحاضرين قد شعروا بجدتها. ولكن إحدى الحاضرات قالت: «نحن لم نسمع عن هذا المصطلح من قبل، ولابد أنه من تأليفك». فابتسمت وقلت: «لا توجد قوانين ضد الابتكار في فرنسا، أليس كذلك؟» فسكتت على مضض ولكنها جاءتني في الاستراحة وقالت إنها علمانية ولكنها تمنع أولادها من رؤية الأفلام الإباحية في التليفزيون. فقلت لها: «حسنًا فعلت، وفي معجمي أنت علمانية جزئية»، فازدادت دهشتها.

وفي ندوة بعنوان «سقوط العلمانية» قدمت هذه الرؤية الجديدة للعلمانية الشاملة، فجاءني البروفسير جون كين John Keane، الأستاذ بجامعة وستمنستر ومنظم الندوة، ومن أهم أعماله سيرة توم بين Tom Pain (المفكر الإنجليزي الأمريكي العلماني)، وقال لي إنه بعد هذا التعريف للعلمانية لم يعد يستطيع النوم! وضحكنا معًا، إذ يبدو أنه كان يفكر في الموضوع مليًا من قبل، وكان بحثي هو القشة التي قصمت ظهر بعيره العلماني.

www.scantopdf.eu

وبالفعل بدأ يعيد النظر في مفهوم العلمانية، بل وبدأ يتحدث عن «ما بعد العلمانية» (بالإنجليزية : بوست سكيولاريزم post-secularism)، وكتب عدة دراسات عن ضرورة فتح ملف العلمانية مرة أخرى ! وعلى كلٍّ، كان تعريفه للعلمانية من البداية جزئيًا للغاية، حتى إنه افتتح المؤتمر بقوله : «إنه لا يمكنه تصور العلمانية بدون الإيمان بالله !» (وهذا هو موقف الربوبيين [بالإنجليزية : ديست deist] الذين يرون أن الإنسان يمكنه أن يهتدي لفكرة الإله دون حاجة لوحي).

وحينما كنت في الولايات المتحدة في أواخر الستينيات، حين بدأت معدلات العلمنة تتصاعد بوتائر لم يعهد البشر مثلها من قبل، كنت أتصور أن أوربا بموروثها الثقافي والتاريخي ستضع بعض الحدود على هذه العلمنة الشاملة. ولكن تدريجيًا بدأت أوربا تلحق بركب «التقدم»، وتهاوت مقولة التراث الحضاري كدرع ضد التفكيك أو التفكك العلماني. وحينما أسير في لندن وأرى المنازل العريقة والعادات الأصيلة وأرى معدلات التفكك، أدرك أن «الأنتيكة» لا يمكن أن تحل محل المنظومات الأخلاقية!

ومما يؤسَف له أن كثيرًا من دعاة الحداثة في العالم العربي يرددون ما يقوله الغرب عن الحداثة الغربية دون أن يطرحوا رأيهم ورؤيتهم في الموضوع، فيتبنون أفكار الحداثة (و«التقدم») بحلوها ومرها، بخيرها وشرها دون تساؤل. ويكتفون بدراسة متتالية التحديث (بالإنجليزية: سيكوانس sequence) دون أن يدرسوا ما يتلوها من نتائج (بالإنجليزية: كونسيكوانس consequence)، ويصنفون كل المشكلات بحُسبانها ثمنًا معقولاً للتقدم. ولعله قد حان الوقت كي نقارن مكاسب التقدم بخسائره، ونرى هل الثمن فادح ؟ وهل يمكن الإفلات من هذا المصير أو لا ؟ وهذه الحادثة الطريفة تبين مدى التبعية الإدراكية (أن نفكر من خلال نماذج الآخر). كنت مرة أشاهد التليفزيون في إحدى الدول العربية، وكان المتحدث هو مدير شركة الطيران القومية لهذا البلد، وأتى بعدة إحصاءات عن حركة الطيران في العالم ثم ختمها بإحصائية عن الإنسان الحديث وأنه ينتقل من مكان لآخر بمعدل كذا ميل في السنة. ثم أردف قائلاً بوقار بالغ وتقوى واضحة : «ونحن نقترب من هذا المعدل بعون الله»، **وكأن اقتلاع الإنسان من مكانه وزمانه وانتقاله كالشيء من مكان لآخر هو أحد طموحاتنا وآمالنا.** (ثبت أن إقلاع الطائرات وهبوطها يحدثان ذبذبات تؤثر على الذاكرة قصيرة الأجل وعلى المخ بشكل عام !).

www.scantopdf.eu

والعلمانية الشاملة - كما أسلفنا - تحول العالم إلى مادة استعمالية، وهي تمثل بهذا المعنى الوجه الآخر للإمبريالية التي حولت العالم (آسيا وإفريقيا والأمريكتين) إلى مادة استعمالية يوظفها الإنسان الغربي (الأقوى) لصالحه. ويمكن القول بأن العلمانية الشاملة قامت بتنظيم الداخل الأوربي بشكل صارم، فرشدت الإنسان الغربي وجيشت الجيوش، وقامت بغزو العالم غزوة إمبريالية شاملة. فالتحديث المنفصل عن القيمة والغاية في الداخل الأوربي، والإمبريالية المنفصلة عن القيمة والغاية في بقية العالم هما وجهان لعملة واحدة. والصهيونية، التي حولت أرضَ فلسطين والفلسطينيين أنفسهم، بل وأعضاءَ الجماعات اليهودية في العالم إلى مادة استعمالية قابلة للتوظيف (تهجير يهود العالم من أوطانهم - تهجير الفلسطينيين خارج وطنهم)، أقول إن الصهيونية بهذا المعنى إحدى تبديات نموذج العلمانية الشاملة.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن العلمانية الشاملة قد تنزع القداسة عن المقدس، ولكنها في ذات الوقت قد تخلع القداسة على غير المقدس. ولذا نجد انتشار النزعات الإلحادية جنبًا إلى جنب مع النزعات «الدينية» الحلولية (البهائية - العبادات الآسيوية - عبادة الأرض [جايا] - التنجيم - قراءة الطالع . . . إلخ). وفي أثناء وجودي في الولايات المتحدة كانت تحيرني هذه الظاهرة «المتناقضة». فمن ناحية تنجيم وخرافات، ومن ناحية أخرى رؤية عملية وعلمية صارمة (الأمر الذي ذكَّرني بأشعار ويتمان، وفلسفة إمرسون «الصوفية» المادية). ولكن نموذج الحلولية والعلمانية الشاملة يعطينا المفتاح للفهم، فهو يعني رفع الحاجز بين المقدس والمدنس، وتقديس أشياء غير مقدسة مثل الكون والطاقة.

إن العلمانية الشاملة (والتحديث المنفصل عن القيمة والغاية) تؤدي إلى تفكيك الإنسان، فهي ترد الإنسان المركب إلى ما هو دون الإنسان، الطبيعة/ المادة، التي لا تتمتع بنفس الدرجة من التركيب. وحينما يتم تفكيك الإنسان، فإنه يُلقى به في عالم الحركة التي لا مركز لها، عالم ما بعد الحداثة ذلك الذي أشرت إليه من قبل. فكأن ما بعد الحداثة هي حلقة أخيرة في سلسلة التحديث على النمط الغربي في إطار العلمانية الشاملة المنفصلة عن القيمة.

وفي محاولة كتابة تاريخ للعلمانية، أبيِّن أن العلمانية بدأت جزئية في منتصف القرن

www.scantopdf.eu

التاسع عشر، ولكن نطاقها أخذ يتسع ويستولي على مجالات مختلفة، ولكن ظلت الحياة الخاصة بمنأى عن عمليات العلمنة، مما نجم عنه أن الإنسان الغربي كان يدير حياته العامة بنموذج العلمانية الشاملة (الأخلاقيات الداروينية وأخلاقيات السوق والمنفعة المادية). ولكنه كان يدير حياته الخاصة بنموذج أخلاقي يعترف بالتراحم وقيم الأسرة والقيم الأخلاقية المسيحية أو الإنسانية (وهي القيم المسيحية بعد علمنتها). ولعل هذه الازدواجية هي سر نجاح واستمرار المجتمعات الغربية الحديثة، وأسمي هذه المرحلة «المرحلة الصلبة». ولكنني أرى أنه ابتداءً من عام ١٩٦٥، بدأت تضيق رقعة الحياة الخاصة، وبدأ الإعلام يتوجه للفرد مباشرةً متجاوزًا كل المؤسسات الوسيطة (مثل الأسرة) التي قد تحميه وتنمي فيه مشاعر وأخلاقيات لا تتفق وأخلاقيات السوق، إلى أن تمت هيمنتها تمامًا، وأسمي هذه المرحلة «المرحلة السائلة».

والتعريف الذي أطرحه للعلمانية الشاملة ينبع من ذلك التمييز المبدئي بين الإنسان والطبيعة، وهو محاولة لاستعادة مقولة الإنسان للإيمانيين بعد أن سلبها منهم العلمانيون الشاملون بحجة الدفاع عن الإنسان ووضعه في مركز الكون، ولكن المتتالية العلمانية الشاملة كما تحققت في الواقع أدت إلى مركزية المادة وتهميش الإنسان واختفائه، ثم إلى اختفاء المركز كليةً وإلى ظهور الفلسفات العدمية بما في ذلك ما بعد الحداثة.

وبعد هذا التحول صدرت لي عدة دراسات. فصدر كتاب حواري مع الدكتور عزيز العظمة بعنوان: **العلمانية تحت المجهر**، وهو تلخيص للرؤية التي أطرحها في كتاب **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة** (من جزأين) وهي جزء من موسوعة من أربعة مجلدات بعنوان: **من وَحْدة الوجود والعلمانية الجزئية والشاملة إلى ما بعد الحداثة: نموذجٌ تفسيريٌّ جديد**، أحاول في هذا العمل أن أعرف وأوضح المفردات الأساسية في معجمي الفكري مثل الطبيعة/ المادة والعقلانية المادية والمسافة والحوسلة؛ فالإنسان -حسبما أرى- ظاهرة مركبة لا يمكن أن تُرد إلى ما دونَها: الطبيعة/ المادة على سبيل المثال، التي تتحكَّم فيها نماذج مادية بسيطة رياضية/ آلية، قوانينها ثابتة يمكن التنبؤ بها والتحكُّم فيها.

ولذا فلابد من استخدام النماذج التحليلية والتفسيرية، بدلاً من التسجيل المباشر، كطريقة للرصد، لأنها طريقة مركبة قادرة على استيعاب ظاهرة الإنسان وتحليلها. ثم أعرض بعد ذلك لقضية الحلولية، حيث أذهب إلى أن الحلولية عملية تدريجية تنتهي

www.scantopdf.eu

بوحدة الوجود، حيث تصفى الثنائية التي تميِّز الوجود الإنساني وتلغى المسافة بين الخالق والمخلوق. ووحدة الوجود المادية، أي سيادة القانون الطبيعي/ المادي على كل من الإنسان والطبيعة، هي ذاتها -في تصوري- العلمانية الشاملة.

وسيتناول هذا المجلد كذلك موضوعات مختلفة لها علاقة بموضوع الحلولية مثل: السبئية - الفيضية - الإنسان الأكبر - إسبينوزا وهيجل وعلاقتهما بالحلولية الغربية - نيتشه - الحلولية والفلسفية الغربية - الغنوصية - القبَّالاه - الحلولية اليهودية - ابن رشد - ابن عربي - علاقة الحلولية بالجماعات الوظيفية والعلمانية الشاملة - الحلولية ونهاية التاريخ - الحلولية وما بعد الحداثة.

ومع تصاعد معدلات الحلول يصبح مركز العالم الإنسان والطبيعة/ المادة، فتظهر العلمانية الجزئية والشاملة اللتان سيتم تناولهما في المجلدين الثاني والثالث. (والذي سارعت بنشرهما قبل المجلدين الأول والرابع على أمل أن أعيد طرح قضية العلمانية، وأفتح باب الاجتهاد بخصوصها). ومع ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة تظهر كلٌ من النزعة الإنسانية والنزعة الطبيعية/ المادية التي عادةً ما تصفّى لصالح المادة، فتتعدَّد مراكز الحلول المادية وتنتقل من الاقتصاد إلى الجنس أو الإرادة أو الزعيم... إلخ، وبالتالي يصبح العالم بلا مركز، وتحل ما بعد الحداثة محل التحديث والحداثة.

وما بعد الحداثة لا تشكل انحرافاً عن الحضارة الغربية، وإنما هي كامنة في منظومة الحداثة نفسها وما أسميه «نزعتها التفكيكية»؛ لأنها جعلت من قوانين المادة الطبيعية معياراً لكل شيء، بما في ذلك الظاهرة الإنسانية. ولكن القانون الطبيعي لا يعترف بأي مطلقات، إذ إنه يقوم بتفكيك كل شيء بما في ذلك الإنسان. ومع تفكيك كل شيء نصل إلى العدمية الكاملة أو إنكار المركز، إلهياً كان أم إنسانياً، وإنكار القيمة، بل إنكار الحقيقة أصلاً، ومن ثَمَّ المقدرة على الحكم؛ أي أننا نصل في النهاية إلى مرحلة اللاعقلانية المادية، وهذا ما سيتم تناوله في المجلد الرابع من هذه الموسوعة.

كما صدر لي كتاب حواري مع الدكتور فتحي التريكي بعنوان: **الحداثة وما بعد الحداثة**.

www.scantopdf.eu